مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

اللغويُّ المجمَعيُّ المعلّم

عاصمُ بهجةُ البيطارْ

١٣٤٥ - ١٤٢٦هـ

١٩٢٧ - ٢٠٠٥م

تأليف

الدّكتور أيمن عبد الرّزاق الشوّا

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

اللغويُّ المجمَعيُّ المعلّم

عَاصم بهجَة البيطَار

١٣٤٥ - ١٤٢٦هـ

١٩٢٧ - ٢٠٠٥م

تأليف

الدُّكتور أيمن عبد الرَّزاق الشوَّا

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الأستاذ عاصم بهجة البيطار

اللُّغويّ المَجْمَعيّ المُعَلّم

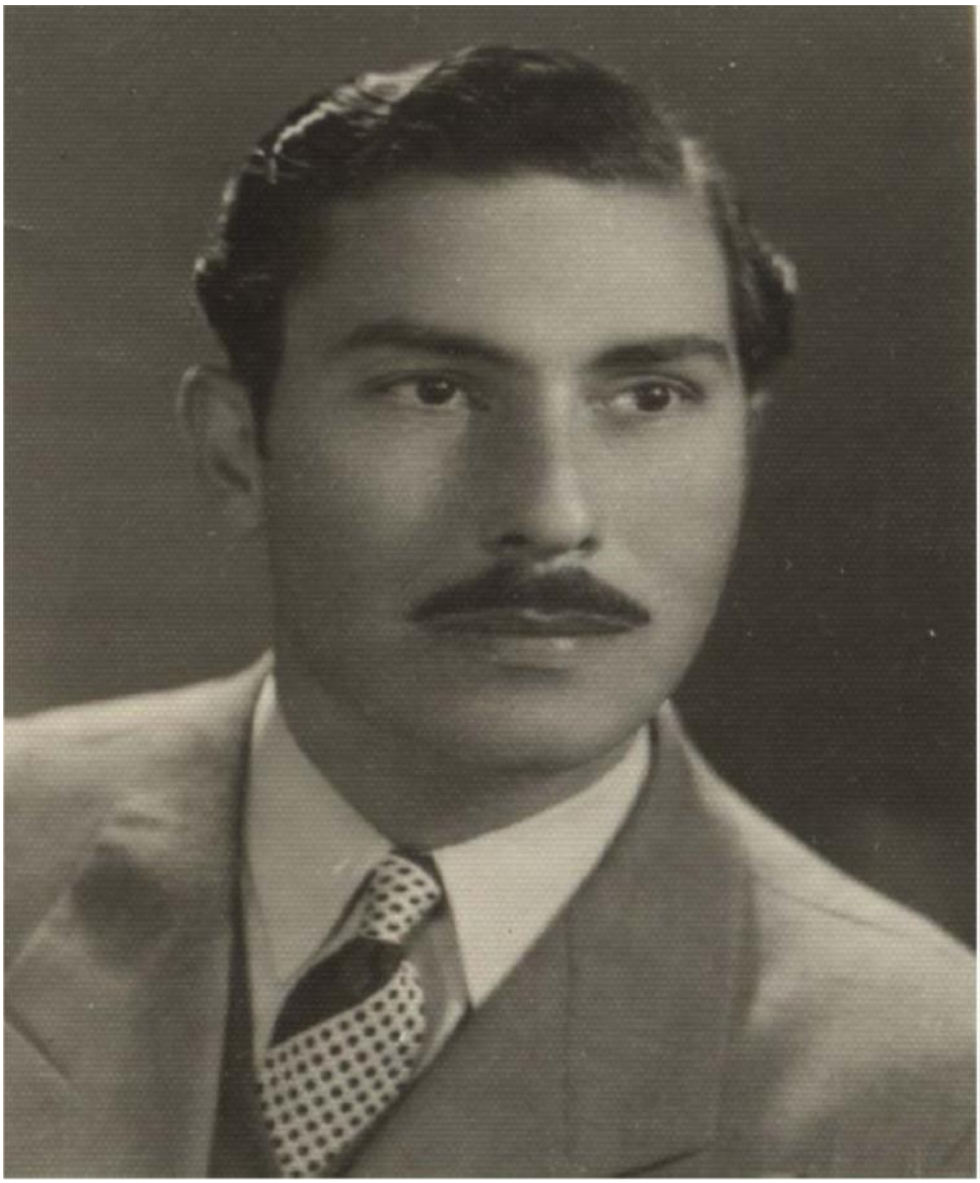

الأستاذ عاصم بهجة البيطار

١٣٤٥ – ١٤٢٦هـ

١٩٢٧ – ٢٠٠٥م

محتوى الكتاب

	الصفحة
تقديم.....	٩
تمهيد	١١
الفصل الأول: سيرة حياته.....	١٥
- السيرة الذاتية للأستاذ عاصم البيطار بقلمه	١٧
- كلمة الأستاذ عاصم البيطار في حفل استقباله عضوًا في المجمع.....	٢٣
- شهادة تقدير.....	٣٢
الفصل الثاني: أعماله العلميّة:.....	٣٣
١. في مجال التأليف.....	٣٥
١. التسهيل في دراسة الأدب العربي الحديث	٣٥
٢. الدليل في دراسة الأدب العربي	٣٧
٣. أضواء على شرح ابن عقيل	٣٨
٤. اللغة العربية لغير المختصين.....	٤٠
٥. كتاب النحو والصرف.....	٤٢
٦. من شواهد النحو والصرف.....	٤٧
٧. فهارس شرح المفصل للزمخشري (٥٣٨هـ).....	٥٠

الصفحة

٢. في مجال التحقيق..... ٥٣

١. كتاب أسرار العربية..... ٥٣

٢- الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين..... ٥٥

٣- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين..... ٥٧

جـ - الأبحاث والمقالات..... ٥٩

١ - النحو بين التيسير والتعسير..... ٥٩

٢ - الأستاذ المعلم المربي سعيد الأفغاني (حديث الذاكرة)..... ٦٤

٣- معجم شواهد العربية تأليف عبد السلام هارون..... ٧١

٤ - فهرس شواهد المفصل – صنعة عبد الإله نبهان ٧٤

٥ - قصة قصيدة – بكاء حمامتين ٧٨

٦ - قصة قصيدة – ملكة جمال وجمال الإبل..... ٨٣

٧- الحاسوب الإلهي..... ٩١

٨- الحضارة المجنونة..... ٩٥

د- التقديم للكتب..... ٩٩

١ - تقديم لكتاب الإسلام والعروبة..... ٩٩

٢ - تقديم لكتاب من روائع البيان العربي..... ١٠٤

الفصل الثالث: الأستاذ عاصم البيطار في عقول المعاصرين وقلوبهم..... ١٠٧

- صفحة من حياة عاصم البيطار الإنسان – د. مازن المبارك..... ١٠٩

الصفحة

- الفرسان الثلاثة..... ١١٣
- عاصم البيطار.. وحوار الأيام الأخيرة - د. محمود الربداوي..... ١١٥
- الأستاذ عاصم البيطار.. وأمانة العلم والتعليم- د. محمد حسان الطيان ١٢٢
- عاصم البيطار مسيرة نصف قرن من العمل الدائب في محراب اللغة العربية – د. محمد مروان مراد..... ١٢٧
- عاصم البيطار: البسمة التي انطفأت – شوقي المعرّي..... ١٣١
- في الدفاع عن الفصحى – الشاعر محسن بن حمد الخرابة..... ١٣٤
- الدكتور عاصم البيطار وجسر المحبة – رزان سلّوم..... ١٣٧

الكلمات التي أُلقيت في حفل تأبين فقيد المجمع الأستاذ عاصم البيطار ١٣٩

- كلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام..... ١٤٣
- كلمة الدكتور علي أبو زيد..... ١٥٠
- كلمة الدكتور عبد الكريم الأشتر..... ١٥٣
- كلمة الدكتور أيمن الشوّا..... ١٥٩
- كلمة السيدة ندى البيطار..... ١٦٦

الخـاتمــة..... ١٧٠

تقديم

لم يكدِ الأتراك يجلون عن سورية حتى قامت فيها حركة نشطة لاستبدال اللغة العربية بالتركية، وبناءِ الوطن الحرّ، وقد تمَّ ذلك بسرعةٍ وإتقان.

ورأى ((مجمع اللغة العربية بدمشق)) في هذه الحركة تجربةً فريدة تستحقُّ الدراسة والتحليل، ويستحقُّ الذين شاركوا فيها أن يُعْرفوا ويُشْكروا وتُنْشر سِيرُهم وآثارهم، فأوكل في سنة ٢٠٠٧ إلى لجنةٍ من أعضائه القيام بالتعريف بأعضاء ((المجمع العلمي العربي)) [١] الأوائل، والكتابةِ عمَّن لم يُكتب عنه منهم وجمع ما أمكن من آثارهم ونشره اعترافًا بفضلهم وإحياءً لذكراهم.

وقد قامت اللجنة بواجبها على خير وجهٍ وأرضاه، ووضعت برنامجًا لعملها، واستكتَبت عددًا من المؤلفين الكبار، واختارت منهم من كانت تربطه بالمؤلَّف عنه رابطة صداقة أو زمالة أو نسب. وفي إثر ذلك بدأ المجمعُ إصدارَ سلسلةٍ من الكتب من أعضائه المؤسِّسين ومن تلاهم. وصدر العددُ الأول من هذه السلسلة في سنة ٢٠١١م، وما زال المجمع ماضيًا في إخراج بقيَّتها.

ويسرُّ المجمع أن يصدر اليوم كتابَه عن المجمعي الأستاذ عاصم بهجة

(١) الاسم السابق لمجمع اللغة العربية بدمشق.

البيطار اللُّغوي المَجْمَعيّ المُعَلّم ، وهذا الكتاب من تأليف الأستاذ الدكتور أيمن عبد الرزّاق الشوا.

والمجمع إذ يرجو أن يُتمَّ ما بقي من سلسلة كتبه عن المجمعيين الراحلين – رحمهم الله – في أقرب وقت، ليتوجَّهُ بالشكر الجزيل إلى لجنة أعمال أعضاء المجمع وإلى السادة المؤلِّفين على جهودهم الطيبة المثمرة.

مجمع اللغة العربية بدمشق

تمهيد

الحمدُ لله الذي هيَّأ لِلُّغَة العربيَّة عبادًا عاملين، رَزَقَهمُ الإِخلاصَ فقاموا عليها رُعَاةً وحَفَظَةً، يُفنُون لها الأعمار، ويملؤونَ بها الأسفار، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا محمَّدٍ – سيِّد ولد عدنان – الذي أُوتي جَوَامِعَ الكَلِم وفَصْل الخِطاب،

وبعدُ:

فإِنَّ أمَّتَنا أمَّة الوَفَاء، وهي التي تعرفُ لرجالها حقَّهم، ولأعلامها علمهم ومنزلتهم، فتسجّل آثارهم، وتخلّد تاريخهم من حصيلة عقولهم وأفكارهم وأقلامهم؛ اعترافًا بفضلهم أوّلًا، ولتنسج الأجيال القادمة على منوالهم ثانيًا:

هذه آثارُنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ولقد بلغت أمتنا في هذا الجانب مبلغًا لم تُسبق إليه، ولم تزحم عليه، وعيًا وإخلاصًا ووفاءً. وهذا ما يؤكد لنا أنَّ الخير معقود في هذه الأمة، باقٍ فيها إلى يوم القيامة، وأنَّ الغثاء – مهما ربا – وأنَّ الزَّبَد مهما طغا فهو إلى زوالٍ، وستشرق شمس هذه الأمة بتراثها المجيد، الذي يمتد بعروقه إلى أصيل ثقافتنا، حتى يعود لنا مجدنا في القريب العاجل – إن شاء الله – وسيعلو شأن لغتنا، وبذلك حدَّثنا التاريخ.

لقد سَنَّ مجمع اللغة العربيّة بدمشق سُنَّة وفاءٍ لتكريم أعضائه أهلِ العلم والفكر والأدب، انسجامًا مع رسالته العلميّة وتوجيهاته النّبيلة. وقد رأى أستاذنا الدكتور مازن المبارك – حفظه الله – أَنَّ الواجب يدعو اليومَ من يشمّر عن ساعد الجدّ، ويتحلّى بفضيلَتَي الوفاء والإخلاص ليرى أنَّ ما في مجتمعنا من جذور النهضة ومن ثمار نظيفةٍ ناضجة، كانت من إنتاجٍ داخليّ، وصنع محلّي. وأمَّا ما شاب غيرها من لوثةٍ أو انحرافٍ فمن آثار ما أُرّخَ له، وزُيّفت أهدافُه، وزُيّنت أعماله من غزواتٍ خارجيّة عسكرية أو تبشيرية.

ولعلّ في نشر سيرة واحدٍ من أولئك الأعلام إشارةً إلى سيرة أمثاله ممَّن سبقه أو عاصره... وهذا ما يحفّز إلى إعادة النظر، وحثّ الكُتَّاب على الترجمة لكثيرين من بناة نهضتنا، رعايةً لحقّهم، ووفاءً لهم، وتقديرًا لجهودهم، وجعلهم قدوةً يقتدى بهم أبناء الجيل من شبابٍ هم عماد الأمة وأمل المستقبل[(١)].

وقال الشيخ طاهر الجزائريّ:

اذكُروا مَنْ عِنْدَكُم مِنَ الرّجال الذين ينفعونكم في الشَّدائد، ودَوّنوا أسماءَهُم في جريدةٍ لِئلا تَنسَوهُم، ونَوّهوا بهم عند كلِّ سَانِحةٍ واحْرِصُوا عليهم حِرْصَكُم على أعزّ عزيزٍ.

والحقّ أنَّ مَعْرِفَة إنسانٍ في دِقّةٍ وتَعَمُّقٍ، وبخاصّةٍ إذا كان هذا الإنسان

(١) الدكتور صلاح الدين المنجد، عالم دمشق ومؤرخها، الدكتور مازن المبارك، ص ١٩.

شهيرًا مؤثّرًا – أمرٌ جليلٌ في ذاته، جديرٌ بكل اهتمام.

وإنَّ دراسةَ الشخصية الكبيرة ومحاولة فهمها كَسْبٌ في ذاته يستحقّ أن تحرِصَ عليه.

وقد جاء هذا الكتاب بتوجيهٍ كريمٍ من مجمع اللغة العربية لإحياء سيرة عَلَم من أعلام هذا المجمع الخالد اللغويّ المجمعيّ **عاصم بهجة البيطار** أستاذ العربيّة والمعلم البارع.

الفَصْلُ الأَوَّل

سـيرة حيـاتـه

السيرة الذاتية للأستاذ
عاصم بن محمد بهجة البيطار
بقلمه

الاسم: عاصم بن محمد بهجة بن بهاء الدين بن عبد الغني بن حسن البيطار، ولدت في دمشق عام ١٩٢٧م. وكنت أستمع من والدي روايةً عن جده لأمه الشيخ عبد الرزاق البيطار، وجده لأبيه الشيخ عبد الغني البيطار أن أسرتنا من أصول جزائرية. وكانت تقيم قديمًا في مدينة «بُلَيْدَة» التي تبعد عن مدينة الجزائر العاصمة أقل من خمسين كيلًا. وأن أحد أفرادها كان يعمل في التجارة. وكان نشاطه التجاري يمتد إلى البلاد العربية في الشرق والغرب، وفي إحدى زياراته إلى دمشق طاب له المُقام فيها، وكان ذلك منذ أكثرَ من ثلاثة قرون، واختار حيّ الميدان جنوبي مدينة دمشق مكانًا لسكناه، وتزوج وأنجب، ولم يعرف من أتى بعده وطنًا إلا دمشق، وليس في المراجع ما يشير إلى ترجمة واضحة للأجداد الذين سبقوا الشيخ حسن بن إبراهيم بن حسن البيطار (١٢٠٦ – ١٢٧٢هـ)، وقد رُزِقَ من الأولاد الذكور علماءَ أعلام، سار ذكرهم في البلاد، وهم الشيخ محمد بن حسن أمين الفتوى في بلاد الشام، والشيخ عبد الرزاق بن حسن العالم والمؤرخ الشهير، وصاحب كتاب: «حِلْية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» والشيخ عبد الغني بن حسن الملقب بالشافعي الصغير، والشيخ سليم

ابن حسن الذي كان يُلقب بالفَرَضيّ لبراعته في علم الفرائض؛ وقد خلّف هؤلاء الأعلام كثيرًا من الأولاد والأحفاد اشتهر منهم علماء وأدباء ورجال سياسة ومعلمون وتجار...

تحصيلي العلمي والأعمال التي قمت بها

كانت مدرستي الأولى في التربية والتعليم هي البيت الذي كان والدي يحرص على أن يبنيه على هدى من تعاليم الإسلام ولغة القرآن، فقد كان يحدثنا منذ نعومة الأظفار بالفصحى، وأكاد أقول: كان لا يحسن الحديث بالعامية.

وكانت دراستي الابتدائية في مدرسة خالد بن الوليد في حي الميدان، وكان بين المعلمين علماء وأدباء معروفون، فقد أخذنا العربية والتربية الدينية عن الشيخين الجليلين: زين العابدين التونسي صاحب «المعجم المدرسي»، والشيخ قاسم القاسمي أخي علّامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي، وكانا حريصين على تدريسنا على طريقة طلبة العلم من حفظ للمتون، وتدبُّر المعاني والأغراض، ومُتابعةٍ في بعض كتب التراث، كما درّسنا في هذه المرحلة الأستاذ الأديب الشاعر أمجد الطرابلسي قبل أن يسافر إلى الغرب ليتمم دراساته العليا فيها، وليعود أستاذًا متميزًا لنا في جامعة دمشق، رحم الله الجميع وجزاهم عنا أفضل الجزاء.

وحصلت على شهادة الدراسة الثانوية الأولى (حسب النظام الفرنسي) عام ١٩٤٤م من الفرع العلمي في ثانوية جودة الهاشمي، وحصلت على الشهادة الثانوية (القسم الثاني فرع الفلسفة) عام ١٩٤٧م، بعد غياب سنتين كنت فيهما

مرافقًا لسيدي الوالد في السعودية.

ونلت الإجازة في الآداب (قسم اللغة العربية) والإجازة في التربية والتعليم من دار المعلمين العليا عام ١٩٥٢م، وعُيّنتُ مدرسًا للعربية في ثانوية الكواكبي في حي الميدان، ولبثت فيها سبع سنوات، ثم نُقِلتُ إلى ثانوية جودة الهاشمي دون طلب من الإدارة أو منّي، فرفضْتُ، وقدَّمتُ استقالتي، واستدعاني وزير التربية والتعليم آنذاك أستاذي الدكتور أمجد الطرابلسي، وأخبرني أن المصلحة العامة هي التي اقتضت هذا النقل، وطلب إليّ سحب استقالتي، فبالغت في الاعتذار، ورجوته أن يستجيب إلى رغبة الحكومة القطرية في إعارتي لها للعمل لديها، ووعدته ألا أبقى فيها أكثر من عام واحد، وكان ذلك، وأُعرت إلى قطر، وعملت فيها مفتشًا للغة العربية عامًا واحدًا (١٩٥٩ – ١٩٦٠م) ثم عدت إلى ثانوية ابن خلدون بدمشق.

– أُعرت بين عامي (١٩٦٣ و ١٩٦٨م) إلى المملكة العربية السعودية، وقضيتُ هذه السنوات الخمس فيها مدرسًا للنحو والصرف في كلية اللغة العربية مما كان يُدعى: الكليات والمعاهد.

– وفي عام ١٩٧٠م استدعاني العلامة رئيس مجمعنا الدكتور شاكر الفحام، وكان رئيسًا لجامعة دمشق، فطلب إليَّ الموافقة على انتدابي للتدريس في قسم اللغة العربية من كلية الآداب، فاستجبت لرغبته بعد تردد يسير، ودرّست مادة النحو والصرف سبعة عشر عامًا، ووضعت للطلاب كتابًا في العربية لا يزال مقررًا حتى هذه الساعة.

– عملت، بعد التقاعد، ثلاث سنوات في «معجم العماد الموسوعي» مشرفًا على الجانب اللغوي منه، وكنت أعمل في الوقت نفسه في معهد إعداد المدرسين.

– سافرت إلى الرياض للمرة الثالثة استجابةً لرغبة جامعة الملك سعود، ودرّست فيها النحو والصرف خمس سنوات (١٩٨٩ – ١٩٩٤م) وكنت أعمل في الوقت نفسه في تقويم كثير من المقالات والبحوث التي تقدَّم إلى مجلة «الفيصل»، وانتهى عملي في الجامعة فأصرّ الأمين العام لمركز الملك فيصل الدكتور زيد الحسين على أن أبقى عاملًا في المجلة، وامتد عملي فيها ثماني سنوات، وعدت إلى دمشق في الشهر الخامس من عام ٢٠٠٢م، وكنت بحاجةٍ ماسة إلى زمن أصيب فيه شيئًا من الراحة بعد هذه المسيرة المتعبة التي امتدت نصف قرن، غير أنني لم أفلح فقد حُملتُ على التدريس في القسمين الجامعي والعالي من معهد الفتح الإسلامي، ولا أزال قائمًا بعملي هذا حتى الآن.

– ثم تكرم أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق فانتخبوني زميلًا لهم، وشرّفوني بالعمل معهم، وبالاستفادة من خبرتهم وعلمهم، أسأل الله أن ينفع بهم دائمًا، ويمتعهم بدوام الصحة ومزيد التوفيق.

الأسفار التي قمت بها

١ – كانت رحلتي الأولى إلى السعودية عام (١٩٤٣م) في خدمة سيدي الوالد، وكنت في السادسة عشرة من عمري، وكان جلالة الملك عبد العزيز قد رغب إلى سيدي الوالد أن يؤسس مدرسة خاصة بأبناء نجد، على أن يكونوا بعيدين عن أهلهم الذي كانوا يرفضون إرسال أبنائهم إلا إلى المشايخ أو المساجد، واختار الملك «الطائف» لتأسيس هذه المدرسة فيها، وسُميّت: دار التوحيد، وقد لقينا في سفرنا هذا

عناءً ثقيلًا، فقد سلكنا طريق البر، فمررنا ببغداد فالبصرة فالكويت فالرياض فالمدينة المنورة فمكة المكرمة وقد أدينا فريضة الحج ثم عدتُ وحدي إلى دمشق بعد غياب امتد ثلاثة أشهر، وأذكر أننا اجتزنا المسافة بين الكويت والرياض (٧٠٠كم) في ثلاثة أيام، وبين الرياض والمدينة المنورة (١٣٠٠كم) في خمسة أيام، فالطرق غير ممهدة، والسيارات تغوص عجلاتُها في الرمال في كثير من الأماكن، وقد تكررت رحلاتي إلى السعودية للعمل في جامعاتها كما سافرت إلى قطر للعمل فيها مفتشًا للغة العربية كما أشرت إلى ذلك من قبل.

٢- قمت برحلة طويلة إلى أوربا عام ١٩٦٢م مع رفيقَي العمر عبد الصمد العويتي وموفق نصري، وزرنا ما يقرب من أربعين مدينة في تركيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألمانية وفرنسة وإيرلندة وإنكلترا والسويد والدانمارك، وكانت وسيلة التنقل سيارة صغيرة (فولسفاكن) ورأينا في رحلتنا هذه ما أذهلنا من المكتبات والمتاحف ودور العلم ومظاهر العمران.

٣- عدت إلى زيارة تركيا وبلغاريا مع زوجتي وأولادي الصغار وقضينا فيهما شهرًا كاملًا .

٤- دعت الحكومة الجزائرية سيّدي الوالد إلى الاشتراك في الاحتفال بنقل رفات الأمير عبد القادر الجزائري إلى وطنه بعد أن نال استقلاله، غيرَ أنَّ الوالدَ اعتذر لبعد الشُّقة، وأرسلني مكانه وكان ذلك عام (١٩٦٦م). وقد كان في استقبال نعش الأمير المجاهد عشرات الألوف من الأشقاء الجزائريين. وصعد

كبار المسؤولين إلى الطائرة. وحملوا النعش على الأكتاف إلى قاعة الشرف، ودفن في اليوم الثاني في مقبرة الشهداء الأبطال.

٥- في عام ١٩٧٦م عقد اتحاد المجامع العربية ندوة في الجزائر لدراسة السبل الصالحة لتدريس اللغة العربية عامّةً، والنحو خاصّةً، فتكرَّم الدكتور حسني سبح رئيس المجمع آنذاك بدعوتي لأكون عضوًا في الوفد السوري، فشكرت له هذه الروح الطيبة، وصحبته إلى القاهرة ثم إلى الجزائر العاصمة، واستقبل الرئيس هواري بومدين الوفود المشاركة، وأثنى على جهودهم، وتحدث عن ضرورة التعريب في الجزائر بحماسة بالغة وإيمان عميق.

هذا ما جرى به القلم من سيرتي الذاتية، وإني مقرّ بأنَّ بضاعتي مزجاة، وأنَّ ما أقدّمه هو جهد المقلّ.

أسأل الله أن يوفق مجمعنا دائماً إلى ما فيه حماية العربية، والذود عن حياضها، والعمل على أن تكون الأساس المتين لبناء نهضتنا وثقافتنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[(١)].

(١) عاصم البيطار، دمشق في ٣٠/ ١/ ١٤٢٤هـ - ٢/ ٤/ ٢٠٠٣م.

كلمة الأستاذ عاصم البيطار
في حفل استقباله عضواً في المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الحفلُ الجليل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعدُ؛

فقد تكرّم أعضاء مجمع اللغة العربية بانتخابي عضوًا عاملًا بينهم، فلهم جزيل الشكر، وأسأل الله أن أكون جديرًا بثقتهم، قادرًا على أن أكون عونًا لهم في أداء المهمة الجليلة التي يتحمَّلون أعباءها، أشاركهم في الذّودِ عن حياض لغتنا الشريفة، وردِّ مكايد أعدائها، وبذل الجهد المخلص في الحفاظ على أصولها، مع التوسّع في وضع المصطلحات الحديثة، والإحاطة بما استحدثه الفكر البشري من تقدّم في مختلف وجوه الحياة؛ لننفي عن لغتنا المعطاء ما تُتَّهم به من جمودٍ وتمسُّك بالقديم، أو التنكُّر لها والخروج على أصالتها، والجريِ وراءَ ما يغريهم به أعداؤها من نصرة اللهجات المحلِّية المفرّقة على العربية القرآنية الجامعة لِلشَّمْل، الموحّدة للأمة، التي غدت أشلاء ممزّقة تسهل السيطرة على مقدّراتها وخيراتها.

أيُّها الحفل الكريم

إنَّ الحديث عن أستاذ الأجيال الدكتور عادل العوَّا رحمه الله رحمةً واسعةً في وقت

قصير عسيرٌ جدا، فهو بحر واسع من المعرفة بمعناها الشامل، والتي يزينها خلق كريم، وإيمان عميق بالرسالة الثقافية التي شاء الله أن يجعله من حملتها، العاملين على نشرها، الحريصين على بناء شباب المستقبل في ضوئها.

لقد كان لقائي الأول بالفقيد الكبير عام ثمانية وأربعين وتسعمئة وألف حينما تقدمت بطلب إلى ما كان يُسمى آنذاك بالمعهد العالي للمعلمين، وكان أحد ثمانية أعضاء في لجنة المقابلة؛ وكنت ذكرت في الاستبانة التي تقدمنا بها أن من الكتب التي قرأتها: «حياة محمد» للعلامة محمد حسين هيكل، واستوقفني طويلًا عند مسألة الوحي، ونزول جبريل عليه السلام من السماء، وحمله كلام الله ليبلّغه الرسول الكريم إلى العاملين، وتساءل رحمه الله: ألا يمكن أن يكون ذلك من باب الفيض النفسي، أو التجلّي الإلهي، أو الإشراق الروحي، وكنت أحسّ بالإشفاق من أن أخفق في الردّ، على ما أحفظه من آيات وأحاديث تدور حول الوحي وطريقة تبليغه، وكنت أنظر إلى الدكتور جميل سلطان رحمه الله، وكأنني أنتظر منه العون، ولكنه بقي صامتًا، وانتهت المقابلة، وكنت من الفائزين عن مدينة دمشق، واستدعاني د. جميل سلطان وقال لي: لقد أحسنت في كلامك، وثباتك على موقفك، وكان د. العوا في مناقشته يحاول أن يثيرك ليستنفر كل قدراتك، وهو يرى أن المربي الموفق هو الذي يستطيع أن يلفت طلابه إلى مزايا يمتلكونها ولا يستعملونها.

وكان اللقاء الثاني في كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين (كلية التربية الآن)، وكنا نستمع إلى فقيدنا الكبير بشغف ومحبة، وكان يتحدث إلينا بلغة عربية سليمة، ويعرض مسائل علم النفس والفلسفة بوضوح وإشراق، ودرسنا عليه سنوات لم

نسمع منه خلالها إلا ما يملأ قلوبنا احترامًا له، وإقبالًا على محاضراته، وكنت كثيرًا ما أرجع بذاكرتي - وأنا أستمع إليه- إلى قصة قديمة جرت لي مع سيدي الوالد الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله وأعلى غرفته في الجنة، وملخصها أنه استدعاني بعد تعييني معلمًا في ثانوية الكواكبي، وقال لي: **أي بنيّ؛ لقد غدوت الآن مُعلّمًا، وهذه مهنة الأنبياء والعلماء والمصلِحين، فماذا أعددت لها؟ فأجبته بأنني أعددت نفسي إعدادًا علميا جيدًا، وأنني سأكون حريصًا على الوقت، ومواظبًا على العمل، ومؤمنًا بخطر ما أنا مقدمٌ عليه**... وأفضت في الحديث أكثر من نصف ساعة، والوالد يصغي باهتمام واضح، حتى إذا ما انتهيت قال لي كلمته التي كانت منهاج حياتي المهنّية بعد ذلك، قال: **كلّ ما قلته يا بني ضروري، ولكنك أغفلت شيئًا مهما هو الذي يجعل كل ما** ذكرته يؤتي أُكُله، قلت: **وما هو؟ قال: أن تحمل الطلاب على محبتك، فإن أحبوك استفادوا منك، وإن لم يحبّوك ذهبت أكثر جهودك أدراج الرياح**...

وقد أحببنا الراحل الكبير حبا ملأ قلوبنا، يتكلم فلا نملك إلا أن نصغي، ويشرح النظريات والمذاهب الفلسفية فتنساب إلى عقولنا بيسر، رحمه الله، وجزاه عنا أفضل ما يجزي عاملًا عن عمله.

ولعل أستاذنا الراحل كان حريصًا على تطبيق منهجه التربوي في تكوين أسرته، فقد اختار ملكًا كريمًا لتكون أم أولاده، وقد أطلق على أولاده أسماءً تحثهم على أن يبذلوا أقصى جهودهم ليستحقوها، وكانوا عند حسن ظن والديهم بهم، لقد سمّى ابنه الأول: «نبوغًا» فكان طبيبًا نابغةً في اختصاصه، وسمّى: شروقًا وفتونًا ونوّارًا، وكانوا في حياتهم تجسيدًا للمعاني الجميلة التي تدل عليها أسماؤهم.

أيُّها السيدات والسادة

ولد فقيد العلم والخُلُق الدكتور محمد عادل بن عارف العوّا في دمشق عام واحد وعشرين وتسعمئة وألف، وأنهى دراسته الثانوية عام ثمانية وثلاثين **وتسعمئة وألف، وأُوفد** إلى فرنسة فدرس في جامعة السوربون، وحصل منها على درجة الإجازة الجامعية الأولى ثم على درجة الدكتوراة في الآداب والفلسفة عام **١٩٤٥م، وقد كان** لهذه السنوات العجاف، كما يسميها رحمه الله، كان لها أثر كبير في تفكيره **وقيمه، فقد** شهد فيها ويلات الحرب العالمية الثانية، وذاق مرارة وحشية الحضارة إذا خرجت عمّا ينبغي لها في خدمة الإنسان، وتقارب أبناء البشرية بعضهم من بعض، ونشر قيم الحب **والخير** والثقافة المشرقة بينهم، وبقيت هذه القضية شاغلة له حياته كلها، ونشر عشرات الكتب التي **تدور حول القيم والأخلاق والكرامة الإنسانية والحضارة** والمدنية، من تأليفه أو ترجمته؛ كما زادته هذه السنوات إيمانًا بأمته العربية، وتمسّكًا بالانتماء إليها، وحرصًا على الكشف عن الوجوه الرائعة الخصْبة من تراثنا الخيّر ولغتنا الغنية التي كانت حلقة إيجابية في سلسلة تطوّر البشرية من النواحي الدينية والفلسفية والعلمية والأخلاقية.

عاد الدكتور العوا - رحمه الله - إلى الوطن عام **١٩٤٥م،** وابتدأ التدريس في **المرحلة الثانوية ودار المعلمين** في دمشق، ثم أُسست كلية الآداب والمعهد العالي **للمعلمين عام ١٩٤٦م** فدرّس فيهما، وكُلف عام سبعة وأربعين إدارة المعهد العالي **للمعلمين،** وسُمّي أستاذًا ورئيسًا لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في كلية **الآداب عام ١٩٤٩م** طوال مدة خدمته الجامعية، كما رأس، إلى جانب عمله الجامعي،

لجنة التربية والتعليم في وزارة المعارف (كما كانت تسمّى آنذاك) إلى آخر عام خمسة وخمسين. وسُمّي وكيلًا لكلية الآداب ثم عميدًا لها لمدة ثماني سنوات.

وللفقيد الكبير مشاركة واسعة في التدريس في الوطن العربي، فقد درّس في جامعات الأردن ولبنان والكويت والجزائر، كما قضى بعض الوقت أستاذًا زائرًا في جامعة هلسنكي، وقد اكتسب شهرة عريضة بثقافته وسعة اطلاعه خارج حدود وطنه، فدُعيَ للمشاركة في مؤتمرات وندوات كثيرة، منها: مؤتمر لليونسكو في بيروت عام تسعة وأربعين، وفي باريس عام واحد وخمسين، وشارك في ندوة أقامتها الجامعة الأمريكية في بيروت عام ستة وخمسين لدراسة فلسفة تربوية متجدّدة لعالم عربي متجدد، ومؤتمر للمستشرقين عقد في ميونيخ عام سبعة وخمسين، وموضوعات أخرى في دمشق وكراتشي والجزائر، وكانت له مشاركة فعّالة في اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، وكان عضوًا في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ومقرّر لجنة الترجمة والتبادل الثقافي عن القطر العربي السوري.

ومن نعم الله على الإنسان العالم المخلص لعلمه وأمته أن يبارك الله له في وقته، فأستاذنا - رحمه الله - أغنى المكتبة العربية بعشرات الكتب تأليفًا وترجمة، إضافةً إلى أعباء التدريس، وكثرة الأسفار، والعمل خارج القطر في الجامعات المختلفة؛ وقد أخبرتني ابنته الدكتورة شروق أنه كان لا يفارق مكتبته ما دام في الدار، وأن زوجه الكريمة السيدة ملك كانت تهيئ له كل ما من شأنه أن يعينه على تأدية رسالته، فقد كفته مؤونة تدبير ما يلزم الأسرة من طعام وشراب ولباس، وجعلتْ وقته كله ملكًا له ولعمله.

أيُّها الحفل الكريم

لقد كان فقيدنا الكبير رحمه الله عربيا صادق الانتماء إلى أمته ولغته، وفيلسوفًا واسع الاطلاع على المذاهب الفلسفية وتطورها عبر التاريخ، وكان مؤمنًا عميق الإيمان بأن القيم السامية والأخلاق الفاضلة هي التي تتيح للأمة أن تبقى وطيدة الأركان، متينة البنيان، شامخة عزيزة مهما مرّ بها من محن، وتكالبت عليها الفتن، وكانت مؤلفاته الكثيرة لا تكاد تخرج عن هذه الأطر، وقد لخص أستاذنا د. شاكر الفحام موضوعات كتبه في خمسة مجالات هي:

١- الحضارة والمدنية. ٢- الفلسفة العامة. ٣-الأخلاق. ٤- فلسفة القيم. 5- الفكر العربي.

ومما يحمد له أنه اهتم في أكثر كتبه المؤلفة بالأخلاق والقيم، ودراسة الفكر العربي، والدفاع عن أمته، ودحض حجج أعدائها الذين يرمونها بالجمود والقصور والتأخر عن الركب العالمي، وبيان دورها الحضاري الذي كان له الفضل الأكبر في اتصال سلسلة الحضارة البشرية.

وكان الراحل الكريم يؤمن بأن الشباب المسلح بالعلم والأخلاق الكريمة هم اللبنات التي يرتفع بنيان الوطن بها، ولذا كان حريصًا على غرس بذور العلم والقيم السامية في نفوس الشباب، وهو على يقين بأن المستقبل سيكون مزدهرًا على تعثر الأمة في حاضرها.

ومن أقواله: «إنني بطبعي متفائل، وأمنيتي أن تبقى قوميتنا، كما كانت، قوميةً إنسانيةً تعتّز بإسهامها في تقدم حضارة البشر، هكذا كنّا، فلنكن أبدًا...»، وقد افتتح

كلمته في حفل استقباله عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية بدمشق عام واحد وتسعين بقوله: «**العروبة انتماءُ محبةٍ وولاء؛ محبة للأمة العربية خير الأمم، وولاءٍ للخُلَّص الكَمَلَة الفضلاء من عشّاق الذود عن حياضها، والنهوض بإمكاناتها، ولاسيّما من بني جلدتها؛ وهل من يضارع رسل مجمع اللغة العربية جهادًا صادقًا في سبيل الأمة العربية، ولغتها الشريفة النامية**».

أيُّها السيدات والسادة:

يؤسفني أشد الأسف ألا يسعفني هذا الوقت القصير ببيان الجوانب المشرقة السامية من شخصية الراحل الكريم الفكرية والخلقية والتربوية والثقافية بشكلٍ عام، وقد كتب العلماء الأجلاء في حفل استقباله عضوًا في مجمع اللغة العربية، وفي حفل تأبينه، وفي ذكرى مرور سنة على وفاته، كتبوا كلمات أفاضت في الحديث عنه، وعدّدت مآثره، واستعرضت أغراضه وآراءه، ولاتزال آفاق القول فيه متسعة خصبة، وليس من الغريب أن تكون لصحبته الطويلة لرسائل «إخوان الصفا» وما كتب عنها وعنهم آثارها البعيدة في تكوين فكره العلمي، وحماسته للعروبة والعربية، فَهُم - كما يصفهم أبو حيّان التوحيدي-: «جماعة تآلفت قلوبهم بالعَشْرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فنذروا جهدهم وجهادهم، وأنفقوا مُدَدهم وأعمارهم في سبيل هذا الهدف السامي الرفيع، والغرض الأسمى النبيل».

أيُّها الإخوة:

لقد رحل الفقيد الكريم بجسده، ولكنه لايزال يؤدي رسالته بفكره النّيِّر، وكتبه الثرية، والسعيد السعيد من خدم أمته حيا وميّتًا، فالحياة مهما طالت قصيرة إذا قيست

بالزمن، وحياة الإنسان المادية كزيارة ضيف، أو سحابة صيف، أو مرور طيف، ولا يبقى منه إلا فكره وعمله، والدليل على ذلك أننا اليوم نذكر أعلامًا من الجاهلية والعصور الإسلامية جميعًا يعيشون في أفكارهم وآثارهم بيننا، ونعيش مع ملايين البشر ممن يولدون ثم يموتون فلا يكاد يذكرهم أحد، وقد أصاب الشاعر كبد الحقيقة حين قال:

ليس من مات فاستراح بميْت إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياء

وقال آخر:

أخو العلم حيّ خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميْت وهو يمشي على الثّرى

يُعَدّ من الأحياء وهو عديم

رحمك الله يا أستاذنا الكبير، وإنا ليعزّينا أننا مانزال ننهل من معين علمك، وأنك باقٍ في كتبك والنابهين من طلابك، وكأنك وأمثالك المقصودون بقول الشاعر:

ولا يموت ذوو فكر ومعرفة إذا استقام على أعقابهم أثَرُ

وقول الآخر:

فقدناه لكنْ نفعُه الدهرَ دائم وما مات من أبقى علومًا لمن وعى

وإني ليشرّفني أن يكون مسك الختام لكلمتي الشكر الصادق للسيد الرئيس على تكرمه بإصدار مرسومٍ جمهوري بتعييني عضوًا عاملًا في مجمعنا العربي، وأرجو أن أكون لذلك أهلًا، وبه جديرًا، ولكنني لا أملك منع نفسي من أن تردد قول الشاعر العربي:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على هرم

ولا أجدّد التعزية لأسرة الفقيد الأستاذ الراحل وحدها، فكلنا في المصاب شركاء، وعزاؤنا أن الفقيد يعيش في قلوب المثقفين، **وقد سجّل اسمه بين الخالدين**، رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى غرفته في الجنة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1]

.

❁ ❁ ❁

(١) مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق – **المجلد (٧٩)، الجزء (٢)، ص (٤٤٥ – ٤٥٢)**.

شَهَادةُ تَقْدير

لقــد ذكــر الزمــانُ لكــم عهــودًا مَــضَتْ قُــدُمًا، فلــم يَــضِعِ الــذّمامُ

لقد منحتْ وزارة التعليم العالي في الجمهورية العربيّة السوريّة كُلا من الأساتذة الأجِلّاء:

سعيد الأفغاني، وعاصم بهجة البيطار، والدكتور مازن المبارك شهادة تقدير لما بذلوه من جهود مخلصة في خدمة اللغة العربيّة، وقد رأت فيهم أمتنا أنهم حصن العربية والأصالة، وقلعة الدفاع عن تراث أمة كامل متكامل، هو فخر ماضيها وسرّ حاضرها وضوء مستقبلها.

تم التكريم في حفل أقيم في صيف عام ١٩٩٤م، في فندق الشام، تحت رعاية السيد رئيس مجلس الوزراء، وحضور السيدة وزيرة التعليم العالي، في ختام ندوة (النّحو والصرف) التي دعا إليها قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، وحضرها عدد غفير ممّثلين عن الجامعات العربية.

الفَصْلُ الثَّانِي

أعماله العلمية

أ- في مجال التأليف

(١)

التسهيل
في دراسة الأدب العربي الحديث[١]

هذا الكتابُ يبرز أثرًا مهمًا من آفاق الثقافة التي امتلكها الأستاذُ عاصم البيطار – رحمه الله تعالى – لا يعرفها كثيرون ممّن سمعوا عن أستاذنا، ولعلّهم قَصَرُوا جهودَه على مسلك تدريس النحو والصرف فقط.

إنّ مجال التدريس الذي التزمه الأستاذ عاصم كان قد بدأ في الثانويات، ومِنْ مناهج التعليم أنْ يدرس الطالب إضافةً إلى النحو والصرف والعروض الأدبَ العربيّ بأنواعه: الأدب الجاهليّ والإسلاميّ، وفنونَ الأدب كالمقالة والقصة والمسرحية، وللأدب الحديث مكانتُه أيضًا، فكان ثمّة توجيهٌ لتأليف هذا الكتاب مع صديق العمر والأخ الغالي الدكتور عبد الكريم الأشتر.

ولا يتصدّى للقيام بهذه الأمور - من تدريس وتوجيه تربوي وتأليف - إلاّ أصحابُ علمٍ وخبرة، وقد أدرك جيل الطلاب سابقًا قيمة المدرّسين والمؤلفين، ومدى

(١) التسهيل: عبد الكريم الأشتر وعاصم بهجة البيطار، المطبعة الجديدة – دمشق، ١٩٦٠ – ١٩٦١م.

خبراتهم، فوصفوا ثقافة الأستاذ عاصم ورفاقه - كالدكتور عبد الكريم الأشتر والدكتور مازن المبارك والدكتور شكري فيصل - بكثرة المعرفة، وغزارة المادّة العلمية، واتّساع الثقافة، وعمق الفكر، وبُعْد النظر، وأصالة الفهم، والغوص على الدليل، ومعرفة سرّ المسألة، وإدراك مقاصد الأمور.

يُظِلُّ القارئ من هذا الكتاب على الأدب الحديث الذي هو صورةٌ كاشفة لأحوال العصر، وبيان لمشكلات الأمة بوعي واقتدار، وكذا هو تعبير عن حاجاتها، وفيه ملامح مضيئة لرسم أماني الأمة، والوسائل الكفيلة بتحقيقها.

(٢)

الدليل في دراسة الأدب العربي

اشترك في تأليف هذا الكتاب نخبة من رجال التربية والتعليم هم الأساتذة: عبد القدوس أبو صالح وعاصم بهجة البيطار وخليل هنداوي وعبد الكريم الأشتر ومازن المبارك.

الكتاب موجه إلى طَلَبة الشهادة الثانوية وأهلية التعليم الابتدائي في حدود المنهج الذي رسمته وزارة التربية لهاتين الشهادتين في ذلك الوقت.

ومن أهداف الكتاب تزويد الطلبة بثروة لغوية غنّية وذوق أدبي رفيع، يستطيعون معه أن يحسنوا تفهّم الضروري من الشرح الأدبي للنصوص والاستعانة بفهم القواعد الأساسية من خلال العرض المبسط، وأن يغدوا قادرين على أن يتابعوا دراستهم، ويشقوا طريقهم بين الباحثين والمتتبعين للدراسات العربية، وكذا أوساط المثقفين يكون مفهومًا لهم في أسلوبه ومضمونه، ولا يجدون فيه غموضًا ولا ما يشبه الغموض.[1]

---

(١) مكتبة الشرق بحلب ودار الفكر بدمشق، طبعة ثالثة ١٩٦٥م.

ينظر كتاب ((مازن المبارك، جهوده العلمية وجهاده في سبيل العربية)). د. أحمد محمد قدور، ص ٦٥ – ٦٦ والمعلومات منه.

(٣)

أضواء على شرح ابن عقيل

حظيت أَلْفِيَّة ابن مالك في علمي النّحو والتصريف بشهرة واسعة، وإقبال من العلماء، لم يُسبَق له مثيلٌ، حتى طُويت مصنّفات أئمة النحو من قبله، ولم ينتفع من جاء بعده بأن يحاكوه أو يدّعوا أنهم يزيدون عليه وينتصفون منه.

وقد كثرت شروح الألفيّة، وزادت على العشرين، وبرز منها شرح الإمام قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل ((ت٧٦٩هـ)).

ومنهجه اتخذ طريقًا وسطًا بين الإيجاز والإطناب، فإنه لم يعمد إلى الإيجاز حتى يترك بعض القواعد المهمة، ولم يقصد إلى الإطناب؛ فيجمع من هنا ومن هنا، ويبين جميع مذاهب العلماء ووجوه استدلالهم.

ولصاحب هذا الشرح من الشهرة في الفن والبراعة فيه ومن البركة والإخلاص، ما دفع علماء العربية إلى قراءة كتابه، والاكتفاء به من أكثر شروح الخلاصة منذ تأليفه في القرن الثامن الهجري حتى وقتنا المعاصر، فقد اختير في عدد من المعاهد العلمية والجامعات مقررًا خاصا متكاملًا.

قال الأستاذ عاصم: كان كتاب (شرح ابن عقيل على الألفية) مقرّرًا في السنوات الثانوية الثلاث من المعاهد الدينية في المملكة العربيّة السعودية، فطلبت إلينا إدارة

الكليات والمعاهد أن نجعله في ثلاثة أجزاء، وأن نضع عليه حواشي وتعليقات تقرّب مادته، وتدني الفائدة، وتوثّق ما فيه من شواهد نثرية أو شعرية.. فتقاسمت العمل مع الأخوين العزيزين عبد الفتاح الغندور – رحمه الله – وحسن عبده الرّيس، وأسمينا عملنا ((أضواء على شرح ابن عقيل)) واستقل كلّ منا بالعمل في جزء[1]. في ضوء خطّة شاملة اتّفقنا عليها.

(١) طبع الكتاب عام ١٩٦٨م.

(٤)

اللغــة العربيـــة لغير المختصـــين[١]

هذا الكتابُ يدرسُه الطُّلّابُ غيرُ المختصّين باللُّغة العربيّة. وُجِّهَ لطلّاب الجامعة على اختلاف اختصاصاتهم كالطّب والهندسة والعلوم والتجارة والاقتصاد، وكذا المعاهد العلميّة المتوسطة. وأولئك الطلابُ الذين أخذوا طَرَفًا من النّحو والصرف في دراساتهم الثانوية، عن كتب حديثة، متعدّدة المناهج. رُوعي فيها الإيجاز والتبسيط، يجدون في أوّل عهدهم بالدراسات الجامعية شيئًا من المشّقة في تفهّم قواعد العربية واستساغة فهمها.

ووُضِعَ الكتاب ليكون صلةً بين الطالب في مرحلته الجامعية ودراسته السابقة، يذكره بما مضى، ويرسّخ في نفسه ما كان قد عرفه من قواعد لغته بنحوها وصرفها وإملائها. وامتاز الكتاب بسهولة سبكه ودقة تراكيبه، والاحتياط بجمع الضروري من القواعد على أساليب سهلة متدرّجة، وفيه تخفُّف من الآراء والخلافات النحوية التي تثقل كاهل الطالب، ولا تجدي نفعًا له. وإنما الكتاب فيه بَسْطُ القواعد الأساسية

(١) اللغة العربيّة لغير المختصين: تأليف د. مازن المبارك، د. منى إلياس، د. عبد الكريم يعقوب، أ. عاصم البيطار، طبع في مطابع جامعة حلب، العام الجامعي ١٩٨٣ – ١٩٨٤.

بسطًا فيه يسر وسهولة، مدعومًا بالأمثلة الكثيرة والشواهد المختارة من روائع الشعر والنثر، ليرى الطالب القاعدة في صورتها العملية الجميلة.

وفي الكتاب ملامح موجزة من قواعد الإملاء المتفق عليها، لتكون عونًا على حسن الصياغة وصحة الكتابة وسلامة الأسلوب وجمال التعبير.

(٥)
كتابُ النّحو والصّرف

قال أهْل العلم: إنَّ خيرَ المُصَنَّفات ما سهُلَتْ منفعتُه، وتمكّن منها كلُّ أَحَدٍ، ولعلّ هذا الوصف يجدر بكتاب النحو والصرف للأستاذ عاصم البيطار، الكتاب الرائد في تعليم قواعد العربية، ومن أهمّ الكتب التي ذاع صيتها، وعَمّ **نفعُها لدى الطلبة،** وأصلُه مُحاضراتٌ ألقاها الأستاذ عاصم على طلّاب السنة الأولى من قسم اللغة العربيّة في جامعة دمشق، وقامت الجامعةُ بعدَ ذلك بطبعه في عام الكتاب الجامعيّ ١٩٧٠م.

قال الدكتور عبد الكريم الأشتر: ((وقد ظل كتابه الكبير في النحو والصرف عمدة دراسة هذين العلمين في الجامعة سنين طويلة، وما يزال إلى اليوم يُعاد طبعه فيها، ونشْره في الطلبة)) (١).

وأجمع المدرّسون أنّ هذا الكتاب هو الأول الذي يحمله الطالب، والذي يعتمده في كل السنوات وبعد تخرّجه، وكلما أعوزته حاجة النحو.

وتأكيدًا على ما ذكره الإمام النووي من أن خيرَ المصنّفات ما سهلت منفعته وتمكّن منه كل أحد، وجدنا عددًا من أجلّاء الأساتذة يقرّرون هذا الكتاب لا غير، لا

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – المجلد (٨٠)، الجزء (٣)، ص (٦٩٨).

في جامعة دمشق فحسب، وإنما في عدد من البلدان. فحين تولى أستاذنا د. نبيل أبو عمشة رئاسة قسم اللغة العربية بجامعة صنعاء في اليمن قرّره على الطلاب لإعجابه به وإدراكه قيمته ونفاسة مادته، وقرّره كذلك أستاذنا الدكتور محمد أحمد الدالي على طلابه بجامعة الكويت، وقد أُعيد تقرير تدريسه بكلية الشريعة في جامعة دمشق أيضًا.

فهـــذه آثارُنـــا تـــدلّ علينـــا فـــانظروا بعـــدنا إلى الآثـــار

المنهج المتّبع في تأليف الكتاب:

صرّح الأستاذ عاصم البيطار بمنهجه الواضح في تأليف هذا الكتاب، استنادًا إلى خبرته الواسعة بكتب النحو والصرف، وما يستصفى منها، وما يلائم جوّ العصر الذي نحن فيه، وما يناسب طلبة العلم. قال: حاولت أن أنهج فيه نهجًا وسطًا لا يُلَحّ في تتبّع الآراء المختلفة، واستقصاء الوجوه المتباينة التي ذهب إليها علماء المدارس النحويّة الشهيرة، ولا يقطع الصلة بتراثنا الخصب، ويتنكّر للبناء الضخم المُحْكَم الذي وضعه السلف لتفسير الظاهرات اللغوية، وكشف طريقتهم في نظم الجملة العربية، واستعمال الروابط الدقيقة للكلمات بعضها مع بعض.

شواهد الكتاب:

حرص - غالبًا – على ضرب الأمثلة من القرآن الكريم – كتاب العربيّة الأوّل – وما صحّ من الحديث النبويّ والشعر ممّا امتلأت به كتب النحو.

تقسيم الكتاب:

جُعل الكتاب في قسمين، ضمّ الأوّل منهما أبحاثًا في النحو، وضمّ الثاني أبحاثًا في

الصّرف. ولا شكّ أنّ منهجه فيهما كليهما أن يعنى بما اتفق عليه علماء النحو، أو بما ذهب إليه أكثرهم دون الدخول في خلافاتهم وخصوماتهم.

قدّم للأبحاث كلها بمدخلٍ فيه تعريف وشرح لبعض أوّليات النحو ومصطلحاته، ليكون الطالب على علمٍ بمدلولاتها حين تمرّ به في بحوث الكتاب.

ففيه تعريف: اللغة والاصطلاح، الكلام، الكلم، العامل المسند والمسند إليه، العُمدة والفضلة، معنى الشاهد النحوي وموضع الاستشهاد، ومصادر الاحتجاج، المصدر الصريح والمصدر المؤوّل، الضمائر البارزة والمستترة، الإعراب الظاهري، التقديري، المحلّي، علامات الأسماء، علامات الأفعال، الحروف وعملها واختصاصها وتقسيماتها..

مضمون الكتاب:

ضمّ الكتابُ معظم المباحث النحوية التي نجدها في كتب الأقدمين، كالفصول الخمسين لابن معطي، والجمل للزّجاجي، وشرح شذور الذهب لابن هشام. وهو يشبهه في أسلوبه ووضوحه وحسن إخراجه، ولا شكّ أنّ الأستاذ عاصمًا تمثّل هذا الكتاب، وأعجب بعرضه وأسلوبه المشرق، المتمثّل بالفكرة الجامعة والنظرة الشاملة لقواعد اللغة العربية.

هذا وقد رأى أساتذتنا ممّن تولى تدريس النحوّ والصّرف بعد الأستاذ عاصم كالدكتور نبيل أبو عمشة والدكتور محمد موعد – حفظهما الله – أنّ الوفاء له أن يبقى الكتاب كما هو، وظلّوا يدرسونه إلى اليوم، لم يُغيّروا شيئًا من منهجه ولا مضمونه، ووجدوا في قرارة أنفسهم أنهم إنما أن يأتوا بشيءٍ يفوق ما في الكتاب، وإنما أن يظل

على حاله، ولقد تطوّع الأستاذ الجليل الدكتور محمد موعد بإخراج الكتاب بحلّة جديدة وتنضيده على وجه حَسَن، وقد أبدى مشكورًا بكلمة مختصرة معبّرة خير تعبير عن أهمّيّة الكتاب بقوله:

يُعَدُّ كتاب النّحوّ والصّرف الذي صَنّفه أستاذنا الكبير عاصمٌ بهجة البيطار لطَلبة السنة الأولى في قسم اللّغة العربيّة في كليتي الآداب والشّريعة بجامعة دمشق من أجل كتب النّحو والصّرف التي بسطت للمادة النحوية بطريقة سَهْلة؛ تمكن الطالب من البَناء النّحوي على نحو صحيح وقويم، وما كان لهذه المادة أن تُعرَض في هذا المصنّف على ذلك النّحو اليسير لولا جُمْلَةٌ من الأمور:

أولها:

أن الأستاذ عاصم بهجة البيطار كان مثال المدرّس المخلص في عمله؛ إذْ وراء هذا الكتاب أستاذٌ جليلٌ كان يُفني نفسه في الأجيال، ويذوب في الطَّلَبة كي تصل العربيّة نقيّة صافيةً إلى أبنائها، ومن دَرَسَ على يديه يعرف هذا حقّ المعرفة.

ثانيها:

أن وراء هذا العمل كدا ودرسًا ونظرًا في مظانّ النحو، وفي مقدمتها شروح الألفيّة؛ حيث أطاق أستاذنا هضمَ هذه الشروح، ثم أخرجها بحلّة جديدة تناسب العصر؛ فكان هذا المصنّف الفذّ.

ثالثها:

منهجٌ علميّ قويم في عرض المادة النحوية مبني على التتبع والتقصي والتحليل والمقارنة والقياس؛ وهذا المنهج هو عمدة الدرس النحوي؛ إذ لا يمكن لعلم النحو أن

ينهض إلّا به؛ وقد أضفى هذا المنهج على الكتاب قيمةً كبرى جعلت منه كتابًا لا غنى عنه للطالب في حياته الجامعية وحياته التدريسية العملية من بعدُ، مما جعل هذا المصنّف مصدرًا من مصادر النحو يتزوّدُ منه بين حينٍ وآخر، سواءٌ أكان ذلك خلال سَنيّ الدرس الجامعي أم في أثناء الحياة التدريسية له.

رابعها:

توضيحُ المصطلح النحوي على نحوٍ علميٍّ صحيح وتيسيرُ استيعابه؛ فقد كان أستاذنا يدرك أن تعلّم النحو يقوم على توضيح المصطلح في أذهان الطلاب من خلال الشرح والتحليل، ومعلومٌ أن وضوح المصطلح يعني وضوح العلم الذي يقوم عليه ذلك المصطلح.

(٦)

من شواهد النحو والصرف

فوائد وتعليقات[1]

لا يترسّخ فَهْمُ أيّ علمٍ من العلوم إلاّ بتأييده بالشواهد الواضحة، وعلم النّحو والصّرف أولاها بذلك، فما أسس كبارُ علماء العربية بنيانَ كتبهم وتصانيفهم إلاّ على شواهد العربيّة من القرآن الكريم والقراءات القرآنية والحديث الشريف وكلام العرب منثوره ومنظومه.

ومن الثّابت أنّ نشأة النحو كانت نشأةً تعليمية وأنها استثمرت الشواهدَ بغية أمرين مهمّين:

١- عصمة ألسنتنا وأقلامنا من مجانبة انتحاء سَمْت كلام العرب فَنَفْهمُ ونُفهِم الآخرين.

٢- صحة الأسلوب واستقامة العربية.

والمقصود بصحة الأسلوب: أن يجري على سَنَن الأسلوب العربي المتمثّل بالشواهد، والمراد بالعربيّة المستقيمة: ما يطابق عربيّةَ الأوائل، ولن يُوصَفَ أحدُها

(١) من شواهد النحو والصّرف: عاصم بهجة البيطار، دار البشائر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

بالصّحة أو الاستقامة إذا خالف الأصولَ العامّة والضوابطَ المنتَزعة من كلام العرب الخُلّص.

وقد وُفق الأستاذ عاصم حين أدرك حاجة الطلاب لما نسمّيه أساليب التدريس ورُزق وعيًا وإدراكًا ثاقبًا، فاهتدى إلى تأليف كتاب جامعي أنفع للطلّاب من اصطناع الأمالي، ورأى أنّ الأملية لن تُقبل بحواشيها الطويلة، فترك منها في الكتاب المقرّر ما لا بد منه، وطبع التعليقات والفوائد والاستطرادات في هذا الكتاب.

أهمية هذا الكتاب:

١ - لم يَعُدْ يُقبَل في هذا العصر عرضُ القواعد في الجامعات دون مناقشة ما تستند إليه من شواهد؛ لأنّ الشواهد روح تلك القواعد تُضفي عليها حياةً ومتعةً وأصالة وعلى هذه المادّة – مادة النحو - أن تكون ثقافة شواهدَ أكثر مما هي ثقافة قواعد.

٢- ذكر الأستاذ عاصم - رحمه الله - أنه يصعب استغناء طلّاب السنة الأولى عن هذا الكتاب فالكتاب المقرر يستدعي حتمًا وجود هذا الكتاب إلى جانبه.

٣- اعتدنا في تدريس النحو والصرف على العناية بالشواهد الصحيحة التي بنى السلف على استقرائها صَرْحَ القواعد العربيّة؛ من القرآن الكريم والحديث الصحيح، وما أُثر من نثر وشعر لفصحاء أجمع العلماء على صحّة الاستشهاد بأقوالهم والاحتجاج بآثارهم، وهذا الكتاب بُغْيَتُنا؛ لما جمع من شواهد متنوعة صحيحة.

مضمون الكتاب:

١ - ضمّ الكتاب أبرز الشواهد النحويّة:

الشواهد القرآنية قاربت مئةً وستين شاهدًا.

شواهد الحديث وهي قليلة، بلغت ثلاثًا.

الشواهد الشعرية قاربت مئةً وخمسةً وتسعين.

٢- اقتضى شرح الشاهد النحوي العناية ببيان معاني الأدوات والحروف وتفصيل الجمل، وتوضيح التي لها محل من الإعراب والتي ليس لها محل.

٣- ذكر الأوجه الإعرابية المتعددة للشاهد القرآني خاصة، وترجيح ما هو ملائم للمعنى.

٤- ذكر بعض المسائل الخلافية المشهورة بين البصريين والكوفيين.

٥- العناية بإعراب المصادر المؤولة.

٦- تنبيه المعربين على أصول نحوية مهمّة، تتعلّق بالسّماع والقياس وما هو ضرورة، ونحو ذلك.

٧- شرح ما يتعلّق بالعلل الصّرفية شرحًا في غاية الوضوح والتيسير.

٨- توجيه ما يتعلّق بالشاهد من قراءات قرآنية وإعرابها.

٩- في نهاية الكتاب نماذجُ من تصريف الأفعال المؤكدة المسنَدة إلى الضمائر المختلفة، وفيه نماذج مهمة من أسئلة الامتحانات مع الإجابة عنها، وذُيِّل الكتاب بفهارس مختلفة للأبيات والأحاديث والشواهد الشعرية التي اتُّفق على صحة الاستشهاد بها؛ لتسهيل معرفة مواضعها والاستفادة منها.

وأخيرًا فإن هذا الكتاب عَوْنٌ لأساتذة النّحو والصرف، ومساعد للطلاّب جميعًا على حسن الفهم والإحاطة بالمطلوب منهم، وفيه نفعٌ كبير، لعله يكون خطوةً نحو تمكين اللغة العربيّة في نفوس شُداة العلم والمدرّسين.

(٧)

فهارس شرح المفصّل للزمخشري ((٥٣٨ هـ))

أصبحت فهرسة كتب التراث عملًا أساسيا لا يُستغنى عنه، فهي المفتاح لما تشتمل عليه تلك الكتب من كنوز الفوائد، وأعلاق النوادر، وتتطلّب الفهرسة دقّةً وَيَقظَةً، لئلّا يند عن المفهرس شوارد تفوته، أو تضطرب عليه نفائس فينظمها في غير سلكها، ويضعها في غير مواضعها. ومن هنا كان لا بدّ أن تتضافر الجهود لتبلغ هذه الصنعة غايتها في التجويد والدّقة والإتقان.

وكان الأستاذ عاصم من المعجبين بكتاب المفصّل للزمخشري في النحو وشرحه لابن يعيش بأجزائه العشرة، وكان له صحبة أثرت فهرسته. قال:

وبعد فقد صحبتُ كتاب المفصَّل لمؤلفه العلّامة محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (٤٦٧ – ٥٣٨هـ) وشرحه للعلّامة موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (٥٥٦ – ٦٤٣هـ) زمنًا طويلًا، وعدت إليه في كثير من مسائل النحو والصرف التي كانت تعرض لي في أثناء تدريسي في قسم اللغة العربية من جامعتي دمشق والإمام محمد بن سعود في الرياض. **وكنت أرى فيه دائمًا علمًا غزيرًا نافعًا جمع فيه صاحبه ما تفرّق في كثير من كتب العلم المعتمدة. غير أني كنت أجد فيه أحيانًا عسرًا في المراجعة، وعنتًا في تَتبُّع القضية التي قد تبسط في أكثر من موضع، مفصّلة حينًا وموجَزَة حينًا، وكنت**

أسمع بعض المهتمّين بكتب التراث، المحتفين بآثار السلف يردّدون الشكوى نفسها، ويودّون لو أن الكتاب يلقى ما يستحق من عناية، فينهض بعض أولي العلم إلى تحقيقه، ووضع فهارس مفصلة له تقرّب فوائده، وتجمع فرائده، وتوطئ سبيل الاستفادة منه. وقد رأيت الأستاذ العلّامة أحمد راتب النّفّاخ قد صنع فهارس لبعض كتب التراث النفيسة تدني قطوفها، يرجع إليها في بحوثه، ويبيحها لطالبي العلم من روّاد بيته. **وقد** جرى في أكثر من اجتماعٍ معه ذكر شرح المفصّل، فكان يشيد به وينّبه على جليل قدره، وسعة أفقه، وحسن إحاطته وشموله، ويأسف لقصور الهمم عن تحقيقه وفهرسته، فشجّعني ذلك على أن أرجو منه المشاركة في وضع فهارس تجمع شواهد الآيات والأحاديث والأشعار، وبدأ مشكورًا في ترتيب مسرد الآيات القرآنية، وبدأت باستخراج الأحاديث والأشعار، غير أن أمورًا شغلت شيخنا النّفّاخ فصرفته عن إتمام العمل، ومضيت أنا في ما بدأت به في أوقات متفرقة، **وكلما أوغلت في التنسيق واستخراج الشواهد المختلفة اتّسعت أمامي المسالك، وتشعَّبت الطرق، وازددت قناعة بأن الكتاب محتاج إلى من يعيد فيه النظر،** ويجمع له من النسخ الخطية ما يعين على استخلاص نصّ هو أقرب ما يكون إلى ما كتب المؤلف.

قرأت الكتاب كله قراءة متأنية، ووضعت على جوانب الصفحات في نسختي عنوانات صغيرة تلخص البحث، وكنت أرجع إلى كتاب سيبويه (١٤٨ – ١٨٠ هـ) في كل مسألة يشير ابن يعيش إليه فيها، وخرجت من ذلك كله بالملاحظات التالية:

١- في الكتاب عدد ضخم من الشواهد الشعرية ما أظنها اجتمعت في كتاب آخر من مطولات النحو (قريب من أربعمئة وألف شاهد).

٢- أثبت الشارح أبياتًا من رواية سيبويه عن العرب، وليست في النسخة المطبوعة من الكتاب، ولعلّه اطّلع على نسخة أو نسخ أتم من النسخة التي اعتمدت أصلًا في الطبع.

على أنّ في الكتاب مواضعَ كثيرةً للنظر، تفتقر إلى بعض الغيورين على اللغة الحريصين على كنوز تراثها، ليُقدَّم هذا السفر الضخم سليمًا صحيحًا تطمئن إليه النفس.

ورأى من الوفاء أن يكافئ من أسدى إليه معروفًا، فقال: أشكر للصديق العلامة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام فضله وحرصه على إخراج هذه الفهارس للناس وقد كانت حبيسة عندي. كما أشكر أجزل الشكر الصديق الأستاذ محمد نجيب قباوة الذي أعانني في ترتيب الآيات الكريمة وضبطها، وكتبها بخطه بعد أن كانت مفرقة في البطاقات.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذه الفهارس نواةً لتحقيق ينهض به أولو العزم من الشباب الذين جمع الله لهم العلم والحماسة والإخلاص. والله وليُّ التوفيق، والحمد لله رب العالمين.[1]

(١) طبع الكتاب مجمع اللغة العربية بدمشق.

ب- في مجال التحقيق

(١)

كتاب أسرار العربية

تأليف

الإمام أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباريّ «ت ٥٧٧هـ»[١]

الكتاب في علم النّحو والصرف، بناه المؤّلف ابن الأنباري على نمط السؤال والجواب، وقد ضمّ أربعةً وستين بابًا، شملت معظم المباحث المهمة في هذين العلمين، وهو تأليف سَهْل المأخذ كثير الفائدة، ذكر فيه المؤلف كثيرًا من مذاهب النحويين المتقدمين والمتأخرين، من البصريين والكوفيين، وصحّح ما ذهب إليه بما يحصل به شفاء الغليل، وأوضح فساد ما عداه بواضح التعليل، ورجع من ذلك كله إلى الدليل، وأعفاه من الإسهاب والتطويل وسّهله على المتعلّم غاية التسهيل.

بيّن الشيخ محمد بهجة البيطار قيمة الكتاب فقال: كتاب «أسرار العربيّة» بيّن ما في قواعدنا النّحوية من إحكامٍ في الوضع، وإتقانٍ في الترتيب والتبويب، وحكَمٍ ولطائفَ في الأحكام، والكتاب يمتاز من غيره بأمرين اثنين:

أوّلهما: أنّ المؤّلف رتّب العلل والأسباب، في علامات الإعراب، على طريقة

(١) عُني بتحقيقه محمد بهجة البيطار وعاصم بهجة البيطار، دار البشائر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٤م.

السؤال والجواب.

والثاني: قُرب المأخذ، وكثرة الفوائد، مما لا تكاد تجده في كتاب واحد.

وأمّا جهود الأستاذ عاصم فقد أراد إخراج الكتاب على أتمّ وجه، وقصد إلى تقديم نصٍّ أقربَ ما يكون إلى ما وضعه المؤلف، فاختار أصحّ النسخ التي وقعت في يده – من بين أربع نسخٍ ومطبوع - فجعلها أصلًا، وذيّلها بحواشٍ .

تَوّج الأستاذ عاصم تحقيقه النفيس بصنع اثني عَشَر فهرسًا، هي غاية في الدّقة والإتقان، وتيسر فهم الكتاب. والمعلوم لدى المحققين والعلماء أن مفتاح فهم الكتاب إنما هو بفهارسه، وهذا ما يظفر به القارئ لـ «أسرار العربية».

(٢)
الفَضْلُ المُبين على عقد الجوهر الثمين[١]

هذا الكتاب في علوم الحديث، أصلُه شرحُ أربعين حديثًا من أحاديث سيّد المرسلين، جمعها المؤلف الشيخ إسماعيل العجلوني الجرّاحي (١١٦٢هـ) من أربعين كتابًا من كتب المحدّثين التي لها الشهرة الكبرى في العالمين؛ ككتب الصحاح (صحيح البخاري، صحيح مسلم...)، وكتب المسانيد (مسند أحمد، مسند عبد بن حُميد، مسند البزّار، مسند أبي يعلى)، وكتب السنن (سنن الترمذي، سنن البيهقي...) إضافة إلى نوادر «الأصول» وكتب الزهد و«مصنف عبد الرزاق»... [٢]

قال الأستاذ عاصم في مقدمته مبيّنًا الدافع إلى هذا العمل ما نصُّه:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، الهادي الأمين وعلى آله وصحبه الأخيار الأبرار الطيبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛ فهذا هو الكتاب الثاني الذي أعمل في خدمته وتحقيقه من كتب علامة الشام الشيخ محمد جمال الدين القاسمي - رحمه الله - وكانت «دار النفائس» قد تولت

---

(١) الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين: تأليف الشيخ محمد جمال القاسمي، تقديم وتحقيق عاصم بهجة البيطار، دار النفائس بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

(٢) ينظر أسماء مصادر الأحاديث الأربعين ص٤٦٧.

طباعة الكتاب الأول «موعظة المؤمنين» (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) الذي طلب إليّ الأستاذ العلّامة النقيب ظافر بن محمد جمال الدين القاسمي أن أحققه وأقدم له فلم تسعني المخالفة على يقيني بأن الأمر يحتاج إلى من هو أطول مني باعًا وأوفر اطلاعًا وأوثق علمًا، وأدق فهمًا وسألت الله أن يجعل من حسناتي ساترًا لقصوري وأن يجعل من الجهد المبذول ما يغفر به الزلات ويتجاوز به عن الهنات.

وقد كنت قلت في مقدمة «موعظة المؤمنين» بأن ما دفعني إلى العمل في بعض كتب القاسمي أمور:

منها: الوفاء ببعض ما للقاسمي رحمه الله وأجزل ثوابه من حقٍّ على أمته، فقد عمل عُمُرَه كلَّه يكتب ويخطب، ويؤلف ويدرس، لا يبتغي من ذلك إلا وجه الله والدار الآخرة.

وكتب القاسمي كنوزٌ تحفل بنوادر الفرائد، وجميل الفوائد، فيها ثمرة مطالعات خصبة غنية، واطلاع شامل على المكتبة الإسلامية: مطبوعها ومخطوطها على السواء، وقد يسّر الله نشر بعضها؛ كتفسيره الجليل «محاسن التأويل»، و«قواعد التحديث» وغيرها، وما يزال في مكتبته العامرة عشرات من الكتب والرسائل تنتظر النشر.

ومنها: الوفاء بحق أبي رحمه الله، فقد كان تلميذًا للشيخ القاسمي، وكان ملازمًا له، شديد التعلق به، وقد كان للشيخ رحمه الله أثر كبير في والدي، غرس في نفسه حب السلفية، ونقاء العقيدة، والبعد عن الزيف والقشور، وحسن الانتفاع بالوقت، والثبات على العقيدة، والصبر على المكاره في سبيلها، ودفع كيد المفترين ودعاوى المبطلين بالحكمة والموعظة الحسنة.

(٣)

موعظة المؤمنين
من إحياء علوم الدين[1]

كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي (ت ٥٠٥هـ)، هو من أجلّ كتب المواعظ وأعظمها، حتى قيل فيه: إنه لو ذهبت كتب الإسلام كلها وبقي الإحياء لأغنى عما ذهب.

جهود الأستاذ عاصم في تحقيق الكتاب:

إخراج النّص بحلة قشيبة، تعين على الفهم الصحيح، من خلال العناية بالعناوين المناسبة، والتفقير للعبارات، وإضافة علامات الترقيم الدقيقة.

- تخريج الآيات القرآنية.

- إكمال الآيات التي تعين القارئ على إدراكها تامةً.

- التخريج الدقيق للأحاديث النبوية من مظانّها من كتب الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم، وكتب الطبقات؛ كطبقات الشافعية الكبرى، والمعجم الكبير والصغير والأوسط للطبراني، والمستدرك للحاكم، والاستعانة بتخريج الإمام العراقي.

---

(١) موعظة المؤمنين: تقديم وتحقيق عاصم بهجة البيطار، دار النفائس، ط٩، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- ترجمة الأعلام الترجمة الواضحة الموجزة.

- تصحيح ما وقع في المطبوع من أخطاء إملائية.

- توضيح بعض الألفاظ والتعبيرات التي يغْمُض معناها على القرّاء، استعانةً بكتب اللغة وشروح الغريب، كالقاموس والمفردات والنهاية.

- إثبات العبارة الصحيحة من حيث النحو.

- توضيح بعض عبارات الإمام الغزالي؛ كاستعماله «مهما» شرطيةً بمنزلة (إنْ) كما ذهب إليه السهيلي، وظرفيةً كما ذهب ابن مالك.

- استيعاب الأستاذ عاصم –رحمه الله- لكتاب الإحياء جعله يبرز ما أضافه الشيخ القاسمي؛ استكمالًا لبعض الأفكار التي أتى بها الغزالي أو ما ألْحَل به فنقضه.

- استكمال بعض التفصيلات التي ألْحَل بها المختصَر، أو وردت وفيها اضطراب أو إيجاز مخِلّ، كما فعل في حديث القاسمي عن النيّة، فقد نقل الأستاذ عاصم ما قاله الغزالي زيادةً في الإيضاح.

- تصحيح ما خفيَ على الشيخ القاسميّ من إيراده بعض الآيات القرآنية.

- تطوّع المحقّق فزاد الكتاب إحسانًا على إحسان حين اختار بعض اللطائف الممتعة التي تناسب جوّ بعض المسائل، فذكرها في الحواشي، إيناسًا للبحث.

جـ - الأبحاث والمقالات

(١)

النحو بين التيسير والتعسير

ليس هذا الموضوعُ جديدًا، ولا أدّعي أنني سآتي فيه بشيءٍ يُسكت صوت الشكوى، ويهدهد من ضجَر المعلّمين والطّلاب في مادة اللغة العربية، فقد طال الحديث في هذا، وكُثرت المؤلفاتُ والمحاضرات فيه، ومحاولات تبسيطه وتيسيره؛ غير أنا – على ذلك كله – نرى أن مستوى ناشئتنا في لغتهم يزداد تواضعًا يومًا بعد يوم، وأن الوحشة بينهم وبين تراثهم وأدب لغتهم تشتد وتوشك أن تكون قطيعة تعصف بما نرجوه من آثار بنّاءة في تكوين أبنائنا الفكري والنفسي والحضاري.

لقد عُقدت مؤتمراتٌ تربوية، وندواتٌ علمية، وأُلفت كتبٌ منهجية، وخضعت عملية تعلّم اللغة وتعليمها إلى تجاربَ كثيرة، ونحن ما نزال نشكو فنشتد في الشكوى، ونُشفق من يومٍ قريب أو بعيد ينظر فيه أبناء العرب إلى ما قاله السلف على أنه لغة أخرى لا يسيغها العصر، ولا تفي بذلك، تقعد بأبنائها فلا يشاركون في السَّبْق العالمي في ميادين المعرفة والتقدم والرقيّ؛ بل ذهب بعضهم إلى أننا لو حطمنا هذا الهيكلَ الضخمَ الذي كبّلنا به اللغويون والنحاة لنفضنا عن أنفسنا ركامًا هائلًا من الجمود والتخلّف، وغلا بعضُهم فادّعى أن الأمة العربية قادرة على أن تكون في مقدمةُ بناة

الحضارة إذا هي أطلقت نفسها من أسر الفصحى، وصبغت لغتها بالصبغة العالمية باستعمالها الحرف اللاتيني.

ليست المشكلُة بالشيء الهين اليسير، فإنّ لهذه اللغة محبّيها الذين يدافعون عنها ويحمون حَوزتها، وإنّ لها من المبغضين والشانئين من يودّ أن يطمس جمالها، ويمسح بيد الحقدُ رواءها وعبقريتها، وبين هؤلاء وأولئك تقف جماهير الناس تحار في الطريق الذي تسلكه فيزرع في نفسها الطمأنينة، ويجعلها تعي ذاتها، وتنمي قدرتها على التفكير والتعبير، ويجسد آمالها ومطامحها، ويأخذ بيدها إلى الغاية في دنيا الحضارة **البنّاءة** الخيرة.

مشكلة النحو والصرف

الشكوى من صعوبة النحو والصرف قديمة معنةٌ في القدم، فقصة أبي الأسود الدؤلي مع ابنته إنْ صحتْ، وخصومة الحضرمي والفرزدق، وخشية عبد الملك بن مروان وقولته المشهورة: شيّبتني المنابر وخشيةُ اللحن، وما كان يؤخذ على أفصح الفصحاء من خطأ يسرع إلى ألسنتهم... كل ذلك قديم، وكل ذلك كان يحصل والسليقة العربية سليمة لم تستعجم، والحواضر العربية ما تزال تستنشق عبير الصحراء النقي؛ فماذا نقول الآن وقد غلبت علينا العجمة، وتقطعت أوصال الجسد الواحد، وغُزينا في عُقر دارنا بمختلف الثقافات واللهجات، وأُشرعت معاول هدّامة تحمل أسماء متباينة نراها ونحسّ آثارها في كل يوم؟!

لن ألتفت إلى هؤلاء الهدّامين، فقد ابتُليت اللغة في تاريخها الطويل الخصْب بكثير من أمثالهم، وخرجت من معركتها ظافرةً ظاهرةً على خصومها، يقول محمود بن عمر

الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في مقدمة كتابه (المفصل): «اللهَ أحمد على أنْ جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى أن أنفرد عن صميمهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجدِ عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين...».

وكأن الزمخشري كان يدرك بعين بصيرته أن التاريخ يعيد نفسه، ولكنْ بأثواب جديدة، ومذاهبَ مستحدَثة، فيقول في المقدمة نفسها: «**ولعل الذين يغضّون من** العربية، ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يَخفضوا ما رفع الله من منارها...؛ **لا** يبعدون عن الشعوبية منابذةً للحق الأبلج، وزَيْغًا عن سواء المنهج...» إلى أن يقول: «وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم، وتدريسهم ومناظرتهم...، **فهم ملتبسون** بالعربية أيَّة سلكوا، غيرُ منفكّين منها أينما وَجُهوا، كَلٌ عليها حيث سَيِّروا... ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها، ويدفعون خَصْلها[1]، **ويذهبون عن** توقيرها **وتعظيمها، وينهون عن تعلّمها وتعليمها، ويمزّقون أديمها، ويمضغون لحمها، فهم** في ذلك على المثل السائر: الشعير يؤكل ويُذم...».

لن ألتفت إلى هؤلاء الهدامين وأشباههم من أدعياء الحداثة، وإنما سأعرض بإيجاز لبعض ما قدّمه محبُّو هذه اللغة للحفاظ عليها، ودفع الدم الجديد إلى عروقها، وإحيائها كما يحلو لبعضهم أن يقول.

---

(١) **الخَصْل**: الغَلَبُ في النضال والسّبق.

إن محبّي هذه اللغة فريقان:

الفريق الأول: محافظٌ شديدُ المحافظة، متزمّت وَعْرُ التزمّت، ربط اللغة بالقرآن الكريم، وأضفى عليها قدسيّة لا تُجيز لأحد من البشر أن يمسها بتغيير أو تبديل، ورأى أن الله أنزل هذا القرآن بلسان عربيٍّ مبين، وأنه سبحانه ما فرّط فيه من شيء؛ ولذا صرفوا جهودَهم إلى فهم اللغة وإظهار مزاياها في هذه الحدود، وقد حرصوا على أن يجدوا لكلّ مسألة تعليلًا، ولكل قضية تفسيرًا، ووضعوا المتونَ والحواشيَ والتقريرات، واختلفوا كثيرًا على وحدة الغاية ونبل المقصد.

ولقد كان لهذا الفريق فضل كبير جدا لكثرة ما كتبوا وألّفوا وقرروا، غير أنهم حجّروا واسعًا، ولو نظروا إلى الأمور نظرةً أكثر يسرًا وأوفر مرونة لوجدوا في القرآن الكريم الذي اتخذوه حجةً لهم هو حجة عليهم، وما أعلم كتابًا يحمل معنى الثورة والتغيير والتجديد كما يحمل القرآن الكريم.

كان كتاب الله المنزل بلغة العرب ثورةً روحيّةً ولغويةً وأدبيّةً واجتماعيّةً وخلقيّةً...، صاغ الناسَ صياغةً جديدة، وبنى لهم بفضل الله عقولًا ونفوسًا وأخلاقًا جمعت بين الحفاظ على خير ما كان، وخير ما يجب أن يكون، وهذه أفضل سبيل للتقدّم الحقّ الذي لا تزيغ فيه الأبصار ولا تضلّ العقول.

الفريق الثاني: المؤمنون بلغتهم، المحبّون لها، الحريصون على خدمتها خدمة كريمة تجعلها كما يود الودود ويسوء الحسود، الراغبون في أن تكون هذه اللغة التي حفظت تراثنا، واستوعبت تاريخنا، ووَفْت بحاجات الحضارة فيما سلف من الزمان، ونقلتها بعد أن أغنتها إلى العالم كله؛ أن تكون سهلةً ميسّرةً قريبةً من الأفهام، قادرة على

الإحاطة بما تتفجّر به الدنيا من المعرفة.

هذا الفريق رفع صوته ينادي بحبه للعربية، وبالشكوى من صعوبات فيها، وبالضرورة الملحة إلى تسهيل تعلمها وتعليمها، وقد كانت لهم محاولاتٌ كثيرةٌ رأوا أنها طريُق نجاتها، فألّفوا في ذلك كتبًا، ونشروا مقالاتٍ، وبسطوا مذاهبَ جديدةً في فهم الظاهرات اللغوية بشكل عام، والنحوية بشكلٍ خاصّ، وكانوا في نظرتهم إلى القديم على تفاوت بيّن واضح؛ من فريق مهاجم عنيف الهجوم يرى أن كثيرًا مما ذهب إليه القدماء تعسّفٌ في الفهم، وجَور في التعليل، وقصور في الاستنباط، وتمسّك بمنطق عقيم لا يمتّ إلى هذه اللغة ونفوس أصحابها وطبيعة عقولهم بأية صلة. وفريق آخر عالج الأمر بنظرةٍ أكثر هدوءًا وأناة، وعرف للقدماء كريم فضلهم، واقترح اقتراحاتٍ وَجَدَ لها في بعض ما أثر عن القدماء سندًا ومؤيّدًا... وسأعرض بسرعة لبعض الآراء التي نشرت، والنظريات التي وضعت، وأشير إلى ما أُخذ به منها في التعليم، وأُلفت في ضوئه كتب كانت زاد الطلاب والطالبات في مدارس أمتنا منذ فترة ليست بالقصيرة.

عرض الأستاذ عاصم بعض المحاولات التي بنيت عليها خطوات عملية وتركت ملامحها على الكتب المدرسية في الوطن العربي كله. منها:

إحياء النحو لإبراهيم مصطفى، لجنة وزارة التربية والتعليم بمصر،

المفتاح لتعريب النحو لمحمد الكسّار، ندوة الجزائر، ندوة النحو والصرف بدمشق.

(٢)

الأستاذ المعلم المُربي سعيد الأفغاني

حديث الذاكرة[١]

يكاد الناس يتفقون على أنّ الأطفالَ يعيشون في حاضرهم، وأنّ الشبابَ يرنون إلى مستقبلهم، ويشغلهم التفكيرُ فيه، وأنّ الشيوخ مشدودون إلى الماضي، يسترجعون الذكريات الدافئة فيه، ويقرّون من الوهن الحاضر إلى الماضي المُونق الجميل، ولا أنكر أنني أصبحت أكثر ميلًا إلى عالم هؤلاء وإن كنت لا أزال أعمل، وأؤدي الرسالة التي نذرت نفسي لها منذ أكثر من نصف قرن.

ولعلّ الحديثَ عن شيخنا الأفغاني وما كان له من أثر في عقولنا هو الذي يردّني إلى الوراء، فأذكر أنني حين بلغت السنة الخامسة الابتدائية درّسنا العربيةَ عالمٌ جليل هو الشيخ زين العابدين التونسي[٢]، ولم تكن مديرية الكتب المدرسية قد أُنشئت بعد، ولم تكن هناك كتب مقررة تلتزم المدارس كلُّها تدريسها، فاختار شيخنا كتاب «قواعد اللغة العربية» من تأليف حفني ناصف ورفاقه، وهو كتابٌ لطيفٌ في حجمه، غيرَ أنه

---

(١) مجلة التراث العربي بدمشق، العدد ٦٢.

(٢) صاحب التآليف النافعة، ومنها: المعجم المدرسيّ، معجم النّحو، معجم الصّرف. وهو أخ للأستاذ الأكبر محمد الخضر التونسي، شيخ الجامع الأزهر.

يكاد يجمع قواعد العربية بحق.

وتمضي السنوات، وأبلغ مرحلة الدراسة الجامعية، فأنتسب إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب، وكنت أدير في ذهني أسماء كثيرٍ من أمهات كتب النحو لعلمائنا القدامى، وأتخيل أن أحدها سيكون هو الكتاب المقرر، غير أنني فوجئت بأن أستاذنا في الجامعة العلامة سعيد الأفغاني، رحمه الله، جعل كتاب «**قواعد اللغة العربية**» **هو** الأصل في الدراسة، على أن نغني دراستنا بالرجوع إلى التراث الخصب الذي تركه **أعلام النحاة القدماء؛ كسيبويه (ت: ١٨٠هـ)، والكسائي (ت: ١٨٩هـ)، وابن جني (ت: ٣٩٢هـ)**، والزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، **وابن الأنباري (ت:٥٧٧هـ)**، وابن يعيش **(ت:٦٤٣هـ)، وابن مالك (ت:٦٧٢هـ)، وابن هشام (ت:٧٦١هـ)** وغيرهم.

وإني لأعترف بأن أستاذنا الأفغاني كان له أثر بعيد جدا في تكوين فكرنا النحوي، **وأن أكثر ما نعرفه من أصول تدريس النحو** والصرف يعود إلى هذه السنة الجامعية الأولى التي كان الأستاذ الأفغاني الرّبان الماهر لسفينتها، والقائد الحكيم لمسيرتها.

لعل مَنَ العسير أن أُحصيَ لكل ما تركته محاضرات العلامة الأفغاني في تكويننا الثقافي، غير أني ألفت الانتباه - على سبيل المثال لا الحصر - إلى أبرز القواعد الأساسية التي كانت خير مرشد لنا في دراستنا الجامعية من بعدُ، ثم في عملنا مدرّسين في مختلف مراحل التعليم الثانوية والجامعية.

يقول شيخنا في مقدمة كتابه «الموجز في قواعد اللغة العربية وشواهدها»: **(جريت** في تفصيل موادّ الكتاب على خطّةٍ غير بعيدة، **فعُنيت بالشواهد، وانتقيتها بليغةً من** عيون كلام العرب في عصر السليقة؛ تنميةً لـمَلَكة الدارس، وتوسيعًا لآفاقه في إدراك

أحوال أُمّته؛ لكون هذه الشواهد مصوّرةً أحوال مجتمعات أصحابها أصدقَ تصوير، تصويرًا لا نجده – بهذه الدقة والصفاء – حتى في كتب التاريخ نفسها، وهي - متى استُوعِبَتْ - أعْوَدُ على المَلَكات مِنْ كثير من القواعد المحفوظة والتعليلات المتكلفة، وجنّبتُ الدارسَ الأقوالَ المرجوحةَ، والمذاهب الضعيفة، مختارًا ما ثبتت صحته على الامتحان)[1].

وقد التزم في تدريسه لنا أن يرسّخ في عقولنا هذه القواعد في البحث والاستقصاء؛ لتكون خطواتنا في تحصيل العلم ثم في إيصاله سليمةً في مقدماتها ونتائجها.

لقد عرفنا في دروس أستاذنا الأفغاني ما معنى الشواهد؟ وما الفرق بينها وبين الأمثلة؟ وماذا يعنون بعصور الاحتجاج؟ وكيف نُحدّد موضع الشاهد ووجه الاستشهاد؟ وقد تعلّمنا منه الصبر على تتبّع مناقشات كبار النحاة، وتوجيه آرائهم، وفهم حُجج كلّ فريق منهم، وأحطنا – بتوجيهه – إلى حدٍّ كبير بالمدارس النحوية المختلفة التي كان لها الفضل في استقراء كلام العرب، واستنباط القواعد العربية التي دوّنوها في ضوء طرائقَ ارتضاها كلُّ فريق منهم، فنشأت مدرسة البصرة، والكوفة، والمدرسة البغدادية، ونحو الأندلس، ونحو المغاربة...

وكان في تدريسه يكره الإسهاب المملّ، فكان يوصل ما يريد أن نتعلّمه بعباراتٍ موجزة، ولعله كان يعتقد أننا اخترنا قسم اللغة العربية لأنّ فينا استعدادًا لسرعة

(١) انظر كتاب: «سعيد الأفغاني» للأستاذ الدكتور مازن المبارك (ص١٠١) نقلًا عن مقدمة «الموجز» المطبوع عام ١٩٧٠م.

الفهم؛ ولذا كان يُنكر على بعض الطلاب أو الطالبات أسئلتهم عن أشياء يفترض أنهم عرفوها في مراحل سابقة، وقد جَعَلنا ذلك نُشفق أحيانًا من السؤال خشية سخريته اللاذعة، ونفزع إلى أستاذنا العلامة عزّ الدين التنوخي - رحمه الله - أستاذ البلاغة، فنسأله ما نشاء، فنسمع منه ما يفسّر الغامض، ويفصح عن المقصود.

وكان لأستاذنا الكبير فضلٌ كبيرٌ في إعدادنا لنكون مدرّسين، وإن ما أصابه بعضنا من نجاحٍ مرموق في أداء رسالته يعود في كثير من جوانبه إلى العلامة الأفغاني، فقد كان يطلب إلينا أن نهيّئ بعض الأبحاث من المقرر، وأن نلقيها على زملائنا، وكان صارمًا في تقويم الاعوجاج، وإحصاء الأخطاء في اللغة، وإعداد الخطّة، وعرض الشواهد ومناقشتها، إلى أن نصل إلى استنتاج القاعدة التي تنتظم ذلك كله، وتبقى الزاد الذي يساعد على السير قُدُمًا في طريق الفهم والإفهام.

وما دام هذا الحديث يستمدّ مادته من الذكريات؛ فإن هذه الذكريات تعود بي إلى أيام الصبا، ووصف مجالسَ كثيرةٍ جدا كانت تُعقد في بيت سيّدي الوالد -رحمه الله - (ت:١٩٧٦م) من بعد صلاة الجمعة من كلّ أسبوع حتى صلاة العصر، وكان أركان هذه الجلسات الفتية الدائمون الأساتذة الأجلاء: عز الدين علم الدين التنوخي (ت:١٩٦٦م)، والشيخ علي الطنطاوي (ت:١٩٩٩م)، وشاعر الشام، أنور العطار (ت:١٩٧٢م)، وأستاذنا الأفغاني (ت:١٩٩٧م) رحمهم الله جميعًا.

كانوا يؤدون صلاة الجمعة في جامع (كريم الدين) الشهير بالدّقاق، وكان والدي مدرّسًا فيه وخطيب الجمعة على منبره مدة تزيد على ستين عامًا، فإذا قُضيت الصلاة شرّفوا دارنا، وتناولوا طعام الغداء، ثم تبدأ الجلسة العلمية التي كانت روضة من

رياض المعرفة، ومن الطريف أنهم كانوا يشترطون أن يكون الطعام لونًا واحدًا لا يتغير، وهو (الكوسا المحشّو)، ولطالما سمعت الأستاذ الطنطاوي يردد: لا صلاة إلاّ في الدقاق، ولا طعام إلا الكوسا...، وكان الطنطاوي بحقّ هو المحرك لهذه الجلسات التي استمرت أعوامًا؛ وكم يحزّ في النفس الآن أن وسائل التسجيل لم تكن متوافرة عندنا في تلك الأيام، ولو سُجّل ما كان يدور في هذه الاجتماعات لوقفنا على كنوز من العلوم والمعارف.

وقد تجاوزت أخبارُ هذه الجلسات الأسبوعية الحدودَ، ووصلت إلى أسماع الكثير من أصدقاء الوالد في العالمين العربي والإسلامي؛ ولذا كان يحضرها علماء كبار ممن يُلمُّون بدمشق، وإنني لأذكر ممن حضر عددًا من هذه الجلسات أمير البيان شكيب أرسلان (ت:١٩٤٦م)، وعَيْنَ أعيان لجدة الشيخ محمد نصيف (ت:١٩٧١م)، والعلامة الجليل أبا الحسن الندوي (ت:١٩٩٩م)، ونائب رئيس جمعية العلماء الجزائريين ثم رئيسها بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت:١٩٤٠م) الشيخ البشير الإبراهيمي (ت:١٩٦٥م) الذي أقام في دمشق فترة بعد أن نفاه الفرنسيون.

وكان الأستاذ الطنطاوي غالبًا هو الذي يقترح موضوع المناقشة والحوار، ومن الطرائف التي ما زلت أذكرها أن الشيخ اقترح يومًا أن يتحدث الحضور في موضوعات شتى، تبدأ من التعليق على خطبة الجمعة، على أن يكون الحديث كله شعرًا...، كما اقترح في يومٍ آخر أن يؤلف الحضور جمعية دَعوها: جمعية الحمير، وأن يصدروا في كل ما يقولون عن تصوّرهم لطرائق الحمير في التفكير، وقد توصّلوا في حوارهم إلى أن عالم الحمير قد يكون أقرب إلى الخير وأبعد عن الشّر من المجتمع

الإنساني الذي تقوده الأطماع، ويستعبده المال والجاه والسلطان.

وكان أستاذنا الأفغاني أقل الحاضرين كلامًا، على أنه لم يكن يفوته النقد اللاذع، أو الملاحظة الموجعة، وكثيرًا ما كان يتبادل مع الأستاذ الطنطاوي الحديث الساخن والنقاش الحاد.

وقد عُرف عن شيخنا الأفغاني أنه كان لا يعود عن رأي رآه، أو موقف اتخذه، ولو عاد عليه إصرارُه بأضرار كان يمكن دفعُها، وقد عبّر هو نفسه عن ذلك بقوله: «وفي طبعي هيام بالحرية والصراحة، وكثيرًا ما أُنكِبُ الطريق الأسلم في سبيل الجهر بما أرى أنه الحق في العقائد والأشخاص، متحمّلًا بصبرٍ وطمأنينة ما أجرّ على نفسي من عناء وعداء...، وهذا بلاء حتمٌ لا مفرَّ منه لمن خُلِق حُرا صريحًا، ولو حاول غير ذلك ما استطاع[1].

وقد جرت لي معه حادثة طريفة تفصح عن أسلوبه في النظر إلى الأمور والحكم عليها، فقد أنهينا امتحانات السنة الأولى في النحو والصرف، وأُعلنت أسماء الناجحين، وكانت الدرجة العليا (٢٠/١٣)، وقد استحقها ثلاثة من الطلاب كنت واحدًا منهم، وقد عجبت لهذه الدرجة، وأعدت النظر في إجاباتي، فلم أرَ فيها من الأخطاء ما يمكن أن يهوي بدرجتي إلى هذا الحد...، ثم دعانا أستاذنا الأفغاني إلى اجتماع نطّلع فيه على أوراقنا، ونتأكد من صحة جمع الدرجات الموزعة على الأسئلة، وتناولت ورقتي وجمعت درجاتها، فإذا هي (٢٠/١٦)، وكنت أعرف في أستاذنا الدقّة

(١) «عائشة والسياسة» بين يدي الكتاب، ص:5. (نقلًا عن كتاب «سعيد الأفغاني» للدكتور مازن المبارك، ص:٣، ٣٠).

المتناهية، فاستعنت برفاقي، وطلبت إليهم جمع الدرجات، فأجمعوا على أنها (٢٠/١٦)، فذهبت إلى الأستاذ وأنا مطمئن إلى أن الخطأ واضح، وذكرت له الأمر، فكان جوابه صريحًا سريعًا: (ما بصير) ثم أخذ الورقة، وقلب صفحاتها، وأطال النظر فيها، ونظر إليّ بعد ذلك وهو يقول: ألم أقل لك؟! **الجمع صحيح، فقلت له: لقد قام** الطلاب جميعًا بجمع مفردات الدرجات، فكانت (٢٠/١٦)، فأشار إلى أحد الأسئلة **وقال:** إنك أخطأت في الإجابة عن هذا السؤال، فقلت: وقد وضعت لهذا السؤال ثلاث درجات، وحرمتني من درجة أخرى لإهمال كتابة همزة قطع...، **فقال بسخرية** مُرّة: الحساب لا يجري هكذا... لو أخطأ خَطَأَك فلان (طالب ضعيف في النحو) لحرمته درجة السؤال، أما أنت فطالب مُجِد، وأنت ابن الشيخ محمد بهجة البيطار؛ ولذا **ينبغي أن تعامل معاملة تليق بأمثالك، فتحرم درجة السؤال، وتعاقب بحذف** ثلاث **درجات أخرى؛ لأنك أخطأت خطأً لا يُقبَل منك...**، وأدركت أن الاحتجاج غير مفيد، وأن النقاش عقيم...، فعدت إلى مقعدي وأنا أقول: **هل هذا معقول؟!!**

على أن هذه الحادثة كان لها أثر بعيد في دراستي بعد ذلك، فقد غدوت أكثر أناةً في القراءة والفهم، وأشد حرصًا على **التأمل العميق، والانتباه الشديد لكل سؤال يطرح،** وقديمًا قالوا: **رُبَّ ضارّة نافعة.**

رحم الله أستاذنا الجليل الأفغاني، وجزاه عن إخلاصه وصراحته ودقته أفضل ما يجزي به عباده العاملين الصادقين، وجعله في أعلى علّيين، مع من رضي عنهم من الأنبياء والصدّيقين، والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

(٣)

معجم شواهد العربيّة[١]

تأليف عبد السلام هارون

تعريف ونقد: عاصم بهجة البيطار[٢]

أسس علماءُ العربيّةِ بُنيانَ قواعدهم على الشّواهد العربية غالبًا، وحدودُ هذه الشواهد واسعةٌ جدا؛ من حيثُ الزمانُ، ومن حيث المكان، ومن حيث تنوّعُ القبائل واللهجات العربيّة التي أمدّت أولئك العلماء برصيدٍ وافرٍ من الشواهد.

تعريف معجم شواهد العربية:

هو معجم ضخم جمع فيه مؤلفه تسعة آلاف شاهد إلا قليلًا، وبسط فيه ما استشهد به العلماء في «النحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وخصائص اللغة وأسرارها، وما يتعلق بها من بحوث نجدها منثورة في مراجع شتى، ومن العسر بمكان أن يهتدي إليها الباحث. (المعجم ص:٥)

وما أخفى المؤلف –رحمه الله- ذاك عن قرائه، فقال: وأذكرُ أني كنت أستنزف

---

(١) معجم شواهد العربية: تأليف عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(٢) نُشر هذا البحث في مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد٦٠: ٤٣٣ – ٤٥٤.

الساعات الطوال، باحثًا منقبًا عن تخريج الشاهد النحوي، أو الصرفي، أو البلاغي، حتى إذا غلبني الجهد صرفتُ نفسي من المضي فيما أنا بسبيله من تحقيق إلى أن تتاح لي فرصةُ مجاهدةٍ أخرى يعقبها يأس أو نجاح.

أنواع الملاحظات:

تنّوعت ملاحظات الأستاذ عاصم البيطار على معجم شواهد العربية وفق الأمور الآتية:

١ - شواهد «شرح المُفصل» التي سَقطت من المعجم:

ثمّة شواهد تقارب الثلاثين لم تذكر في «معجم شواهد العربية»، وهي من شواهد «شرح المفصل»، فذكرها الأستاذ عاصم لتكون تكميلًا لهذه الشواهد.

٢- الأبيات المشتركة الموضوعة بقافية واحدة:

ذكر الأستاذ هارون قافية: (بَيْثرب) وأورد أنها للسّماخ أو الأشجعي، وتوثيقها من «الكتاب» لسيبويه، و«الخصائص» لابن جني، و«شرح المفصل» لابن يعيش، و«المقرب» لابن عصفور، و«همع الهوامع» للسيوطي، و«الدرر اللوامع» للشنقيطي.

قال الأستاذ عاصم: وهما بيتان وردا في «شرح المفصل» لابن يعيش:

أ- وواعدتني ما لا أحاول نفعه مواعيد عرقوب أخاه بيْثرب

ب- وَعَدْتِ وكان الخلف منك سجّيةً مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

الأوّل للسّماخ، والثاني لعلقمة الأشجعي.

٣- الأبيات التي سقطت الإشارةُ إلى مواضعها:

من التتبُّع الدقيق المحكم للأستاذ عاصم لـ«معجم شواهد العربية» وجد أن ثمة

شواهد ذُكرت في المعجم وأُحيل إلى بعض المراجع التي استشهدت بها، ولم ينبّه على مواضعها من «شرح المفصّل».

٤- تقويم الخطأ في أرقام الأجزاء والصفحات.

ملاحظات مختلفة في العمل المتقن للأستاذ عاصم، نجد أمورًا مهمة، منها:

أ- تصحيح اسم شاعر.

ب- تصحيح عروضي.

ج- شواهد نسبت إلى بعض الكتب وهي ليست فيها.

د- التخطئة في نسبة شاهد.

هـ- الاستعانة بحواشي «شرح المفصل».

و- شواهد ذكرت في الأشعار والصواب نسبتها إلى الأرجاز.

هذا العمل المتكامل والدّقة في تتبّع معجم ضخم لا يصدر إلّا عن علمٍ وخبرة، وفوق كل ذلك النصح، وهذا ما نراه في ختام البحث، قال الأستاذ عاصم: هذه ملاحظات عَرَضْتُها كما دوّنت في أوراقي، وقد دفعني إلى نشرها حرصي الصادق على حسن الاستفادة من المعجم، والرغبة المخلصة في أن ينهض أناس من تلاميذ المؤلّف ومريديه - وهم كثر بحمد الله - بإعادة النظر في المعجم كله، وتصحيح ما فيه من خطأ في الطبع، أو نقص في التخريج، أو وهم في الدلالة؛ ليكون جديرًا بأن يحتل مركزه اللائق به بين المراجع الأساسية، ويعين كلّ من يتجه إلى كتب التراث في اللغة وعلومها.

(٤)

فهرس شواهد المفصل[١]

صنعة عبد الإله نبهان[٢]

يُعَدُّ كتاب «المفصل في علم العربيّة» للإمام الزمخشري جار الله محمود بن عمر (ت٥٣٨ هـ) من الكتب التعليمية الهامة التي رُزقت –لأسباب كثيرة- الشيوع والذيوع في زمانها وبعد زمانها إلى عصرنا هذا. وقد أقبل عليه الشّراح فأفرغوا فيه جهودهم، وجعلوا من متنه أساسًا لتأليف مطوّلات نثروا فيها قواعد العربية وعللها وشواهدها ومسائل الخلاف فيها.

منهج الكتاب:

الكتاب على أربعة أقسام، الأول في الأسماء، والثاني: في الأفعال، والثالث: في الحروف، والرابع: في المشترك من أحوالها.

وهو كتاب تعليمي عظيم القدر، كما قيل فيه:

---

(١) فهرس شواهد المفصل: صنعة عبد الإله نبهان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، العدد ٦٢، ص٤٦٦، والتعليق عليه للأستاذ عاصم البيطار.

(٢) أستاذ علم النحو والصرف في جامعة البعث، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

إذا مـا أردت النحـو هـاك مُحَـصّلًا عليـك مـن الكتـب الحـسان مُفَـصّلا

تعليق الأستاذ عاصم البيطار على فهرس شواهد المفصّل:

بادر الأستاذ عاصم بقراءة عمل الدكتور النبهان، وقدّر قيمة هذا العمل، وأراد أن يرتقي بهذا العمل الجليل نحو الكمال، فكان له مجموعة ملاحظات، بيّنها بوضوح بقوله: قرأت ما كتبه الأستاذ عبد الإله نبهان في فهرسته لمفصّل الزمخشريّ - رحمه الله - وأجزل ثوابه، كما قرأت التعليقات الدقيقة التي كتبها الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، يدفعه إلى ذلك ما دفع الأستاذ النبهان نفسه من الرغبة في خدمة التراث وتقريبه إلى الناس وتيسير الاستفادة منه... **ولعمري إنَّ العمل في تراثنا العظيم مَحْمَدَةً تُذكَر فتُشكَر، فهي تحتاج إلى سَعَة الصدر، وجميل الصبر، والجهد الشديد، والبصر الحديد، والتوفر على العمل، والسخاء في بذل الوقت، وهي أمور عزّت بعد أن غدت الحياة كلها ركضًا** محموماً طحنت الناس بَرَحَاها، وشدتهم شدا **ثقيلًا مُضْنيًا** إلى تحمُّل أعباء العيش اليومي وتكاليفه والتماس الطرق إليها.

والفهارس حَسَنة من حسنات المنهج الجديد في نشر التراث والعناية به، فهي الدليل الأمين إلى فوائده وفرائده، والمرشد الصادق إلى كنوزه وأعلاقه، وكلما اشتدت العناية بضبطها كان ذلك أقربَ إلى حسن الاستفادة منها، وقد بذل الأستاذ النبهان في فهرسه جهدًا محمودًا لا يغضّ منه هَنات وقعت هنا وهناك، فالعصمة والكمال لله وحده وقد سجّل بعضها الأستاذُ الدكتور الفحام في تعليقه، وإني أضيف أشياء سجلتها وأنا أقرأ الفهرس؛ إتمامًا للفائدة وتوخّيا للتعاون «على البر والتقوى».

١- صحح الأستاذ الدكتور الفحام الآية الكريمة التي ذكرت في الفهرس ﴿وهو

الحق مصدقًا لما بين يديه﴾ [البقرة ٢/٩٧]، والتي ذكر المحقق أنها جاءت كذلك في سورة [آل عمران ٣/٣] وسورة [المائدة ٥/٤٦، ٤٨] وذكر الآيات الكريمة التي وردت في هذه السور، وفي سور أخرى غيرها وليس فيها جميعًا آية بالنص المذكور. على أنّ الآية التي وردت في المائدة اشتملت على موضع الشاهد مرتين، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة ٥/٤٦].

٢- ملاحظات عامة:

- الغاية من وضع الفهارس هي تسهيل الإفادة من الكتاب وتقريب النفع، وإيرادُ الآيات منسوقة على السور ومرتبة حسب تسلسل ورودها مفيد في إحصاء ما اشتملت عليه كل سورة من شواهد قرآنية، ولكن لا يستفيد منها من لا يعرف موضع الآية من سور القرآن، ولا بد في رأيي من ترتيب الآيات حسب الحروف الهجائية. وإذا كان على المُراجع أن يعرف موضع الآيات من المعاجم المفهرسة ليعود إلى فهرس الكتاب بعد ذلك، وليصل إلى ما يحبه في الكتاب نفسه؛ فما أغنيناه كثيرًا، وإذا أضفنا إلى ذلك عدم ترتيب الآيات على تسلسل حروف أوائلها في كل سورة فليس من فارق كبير بين تتبعها في المصحف أو في الفهرس، ولو وجد فهرسان رتب أحدهما على السور والآخر على الحروف لتمت الفائدة.
- ينبغي أن تُضبطَ الآياتُ بالشكل الكامل كي لا يذهب القارئ إلى غير

الصواب، أو إلى ما يخرج بالشاهد عما سيق لأجله.

- التنبيه على عمل النّساخ للكتب، فهم قد ينقصون من الأصل أو يزيدون عليه ما لا يُخرجه عن موضوعه.
- الإشارة إلى هَنات قد يكون مردُّها إلى الطباعة.
- ذكر ما أنقصه الأستاذ النبهان من بعض الشواهد.
- توجيه النظر إلى بيان ما عليه الشاهد، مع الضبط والتوجيه، وأنّه لا بدّ من تفصيل القول في بيان روايات الشاهد، وخاصّة إذا كان الشاهد مما يرتبط بقراءات قرآنية، فقد أثبت الأستاذُ المفهرس آياتٍ كريمة على وجه من وجوه القراءات المأثورة المشهورة. والمستحسن أن يشير إلى القراءات المعروفة عندنا، أو إلى القراءة المرسومة في المصاحف المطبوعة المتداولة. علمًا أنّ الأستاذ المفهرس قد التزم تخريجَ القراءات وذكرَ من قرأ بها.
- أثبت الأستاذ المفهرس بعضَ الآيات وأشار إلى أرقامها وهي من آيتين اثنتين.
- في مقال الأستاذ عاصم تعقيب على بعض آراء الأستاذ الدكتور شاكر الفحام – رحمه الله - حول توجيه بعض الشواهد القرآنية، ولعلّ الخطوة الأتمّ لإظهار هذا الكتاب المهم تكمن في استثمار هذه الملاحظات جميعًا - وقد صدرت من حُذّاق أعلام النحويين - لإخراج كتاب ((المفصل)) بتحقيق علمي نفيس يُبرز قيمته وجلالة قدره.

(٥)

قصّة قصيدة
بكاء حمامتين

ذكر ياقوت في كتابه «معجم البلدان» (ج ٢/ ٢٢١) في حديثه عن «حَجْر» بفتح الحاء: أنها مدينة اليمامة وأمُّ قراها، وبها ينزل الوالي، وقد روى أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثنى أن بني حنيفة بن لُجيم بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل خرجوا يرتادون الكلأ حتى قاربوا اليمامة، وخرج عبيد بن ثعلبة من بني حنيفة منتجعًا بأهله وماله يتبع مواقع القَطْر حتى هجم على اليمامة، فنزل موضعًا يُقال له: قارات الحُبَل، وهو من حَجْر على يوم وليلة، وخرج راعيه ذات يوم حتى أتى قاع حَجْر، فرأى القصور والنخل، وأرضًا عرف أن لها شأنًا، وهي التي كانت لطَسْم وجَديس فبادوا، فأخبر عُبيدًا بذلك، فأردفه خلفه وتيمم شطر المكان، فلما رأى حَجْرًا لم يحل عنها، فوضع رمحه في الأرض، ثم دفع الفرس، واحتجر[1] ثلاثين قصرًا، وثلاثين حديقة، وسماها حَجْرًا، وكانت تسمّى اليمامة، وقال في ذلك:

حللنا بدارٍ كان فيها أنيسُها فبادُوا وخلّوا ذات شَيْدٍ حصونَها[2]

---

(١) احتجر الشيء: حَجَره على نفسه وجعله خاصًا به دون غيره.

(٢) الشَّيْد: كل ما طُلي به البناء من جصّ ونحوه. وشاد البناء شَيْدًا: أعلاه ورفعه.

فـــصاروا قطينًـــا للفـــلاة بغُربـــة رمـــيًا وصرنـــا في الـــديار قَطينَهـــا[١]

فـــسوف يليهـــا بعـــدنا مـــن يحلُّهـــا ويـسكن عرضًـا سـهلها وحُزونَهـا[٢]

ثم توالت السنون، وقام رجل من بني جُشَم بن بكر يقال له: جَحْدر بن ربيعة يخيف السبيل بأرض اليمن، وبلغ خبره الحجاج، فأرسل إلى عامله باليمن يشدّد عليه في طلبه، فظفر به، وحمله إلى الحجاج بواسط، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال له: كَلَبُ الزمان، وجفوةُ السلطان، وجراءةُ الجَنان[٣]؛ فأمر بحبسه فَحُبس، فحنّ إلى بلاده وقال:

لقـد صَـدَع الفـؤادَ، وقـد شـجاني بكـــــاءُ حمـــــامتين تجاوبـــــان

تجاوبتـــا بـــصوتٍ أعجمـــيٍّ عـــلى غُـــصنين مـــن غَـــرْبٍ وبَـــان

فأسـبلْتُ الـدموعَ بـلا احتـشامٍ ولم أكُ بـــــالبَليم ولا الجَبَـــــان

قلـــت لـــصاحبي: دَعَـــا مَلامـــي وكُفّـــا اللّـــومَ عنّـــي واعْـــذُراني

ألـــيس اللهُ يعلـــم أنّ قلبـــي يُحبّـــك أيّهـــا الـــبرقُ الـــيماني؟

وأهـــوى أن أعيـــد إليـــك طَـــرْفي عـــلى عُـــدَواءَ مـــن شـــغلي وشـــاني[٤]

ألـــيس الله يجمـــعُ أمّ عمـــرو وإيّانـــا فـــذاك بنـــا تـــدان؟

بـــلى! وتـــرى الهـــلال كـــما أراه ويعلوهـــا النهـــارُ كـــما عـــلاني

(١) قطين الدار: أهلها.

(٢) الحُزون: مفردها الحَزْن؛ وهو ما غَلُظَ من الأرض.

(٣) يقال: كَلِبَ الدهر على أهله كَلَبًا: اشتدّ. والجَنان: القلب.

(٤) العُدَواء: الموانع.

فما بين التفرّق غيرُ سَبْعٍ ... بَقَيْنَ مِن المحرّم أو ثمان[1]

ألم ترني عُذيتُ أخا حروب ... إذا لم أجن كنتُ مجَنّ جانِ

أيا أخويّ من جُشَم بن بكرٍ ... أقلّا اللوم إنْ لا تنفعاني

إذا جاوُزتما سَعَفات «حَجْرٍ» ... وأودية اليمامة فانعياني

لفتيانٍ إذا سمعوا بقتلي ... بكى شُبّانُهم وبكى الغواني

وقولا: جحدرٌ أمسى رهينا ... يُحاذر وقعَ مصقولٍ يماني

ستبكي كلُّ غانيةٍ عليه ... وكلُّ مُخَطّبٍ رَخْصِ البنان

وكلُّ فَتًى له أدبٌ وحِلْمٌ ... مَعَدّيٍّ كريمٍ غيرِ وانِ

فبلغ شعره هذا الحجاج، فأحضره بين يديه وقال له: أيُّما أحبّ إليك؟ أقتلك بالسيف أو أُلقيك للسباع؟ فقال له: أعطني سيفًا وألقني للسباع؛ فأعطاه سيفًا وألقاه إلى سَبُع ضارٍ مُجوع، فزأر السَّبُعُ وجاءه، فشدّ عليه جحدرٌ وهو يقول:

ليثٌ وليثٌ في مجالٍ ضَنْكِ

كلاهما ذو قوةٍ وبَسْكِ

وصولةٍ وبَطْشةٍ وفَتْكِ

إن يكشفَ اللهُ قناعَ الشكِّ

فأنت لي في قبضتي ومُلْكي

ثم دنا منه، وضربه بالسيف، ففلق هامَتَه؛ فأكرمه الحجاج واستتابه، وخلع عليه، وفرض له في العطاء، وجعله من أصحابه.

---

(١) أي لم يبق بينه وبين مقتله إلا ما تبقى من شهر المحرم الحرام.

مما يلفت النظر في تراثنا هذه الصلةُ الوثيقةُ بين الحَمام والشاعر الذي حَزَبته الأمور، وضاقت به الأيام، وأُصيب بفقد قريب، أو بهجر حبيب، أو بسجن فُرِضَ عليه، أو بنفي صار إليه، فهذا العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سُلمى يستمع إلى حمامة تنوح فتضجّ في قلبه الذكريات ويشدو:

أإن سَجَعَتْ يومًا بواد حمامةٌ ... دَعَت «ساقَ حُرٍّ» ماءُ عينيك دافقُ[1]؟

كأنك لم تسمَعْ بكاء حمامة ... بشَجْوٍ ولم يَحْزُنْكَ إلفٌ مفرّقُ

ولم ترَ مفجوعًا بشيءٍ يحبُّه ... سواك ولم يعشق كعشقك عاشقُ

بلى فأفِقْ عن ذِكْر ليلى فإنما ... أخو الصبر من كلف الهوى وهو تائقُ

وقد نُسِبَت الأبيات أو بعضها إلى أكثر من شاعر.

والحمام رفيق العشّاق، وسمير أصحاب الصبابة، يعبّر بنوحه عن معاناتهم، ويهيج شوقهم وأحزانهم، يقول جَهْم بن خَلَف:

وقد هاج شوقي أن تغنّتْ حمامةٌ ... مُطَوقةٌ ورقاءُ تصدَح في الفجر

هَتُوفٌ تُبكّي ساق حُرٍّ ولن ترى ... لها دمعةً يومًا على خدّها تجري

تغنّت بلحنٍ فاستجابت لصوته ... نوائحُ بالأصياف من فَنَن السِّدْر

إذا فَتَرت كَرّتْ بلحنٍ شجٍ لها ... يهيّج للصبّ الحزين جوى الصَّدْر

(١) ساق حُرّ: يقول الجاحظ في كتابه الحيوان (٣/ ٢٤٢ – ٢٤٣): زعم الأصمعي أن ساق حر هو حكاية صوت وحشي الطير من هذه النّواحات. وبعضهم يزعم أن ساق حر هو الذكر منها. وهو الأليق بهذا الموضع والذي سيأتي في الأبيات التي تَلي.

فلا عجب إذا ناجى أبو فراس حمامةً كانت تُنوح بقرب سجنه في حصن خَرْشَنَة من بلاد الروم في قصيدته الشهيرة:

أقـولُ وقـد ناحـت بقـربي حمامـةٌ: أيـا جارتـا لـو تـشعُرين بحـالي
مَعَـاذَ الهـوى مـا ذقـتُ طارقـة النـوى ولا خَطَـرَت منـك الهمـومُ ببـال
أيـا جارتـا مـا أنـصف القـوم بيننـا تعالَـيْ أقاسِـمْك الهمـومَ تعـالي

ولا عجب كذلك إذا سمع ابن خفاجة الجَبَل الذي يعاني ما يعانيه الشاعر من تفرُّق الصحب، وإدبار الأيام، وخلاء الساحة من الأحبة، ووحشة العزلة، إذا سمعه يقول:

فـما خَفْـقُ أيكـي غـيرُ رجفـة أضـلُعٍ ولا نـوحُ وُرقي غيرُ صرخة نـادب[1]
ومـا غَـيضُ الـسُّلوانُ دمعـي وإنّـما نَزَفْتُ دموعي في فراق الصواحب[2]

(١) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.

(٢) مجلة الفيصل: العدد: ٢٢٤.

(٦)

قصـــة قصـــيـدة

ملكة جمال وجمال الإبل

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥- ٦].

الإبل: سفينة الصحراء التي أبدع الله خلقها لتكون ملائمة للصحراء القاسية بحرارتها، وانقاد رمالها، وشُحّ مياهها؛ غيرَ أن الأستاذ عز الدين التنوخي[١] يتساءل: أليس من الأولى أن نستدل على عظمة الخالق وبديع صنعه بالجمال الباهر الآخاذ الذي يبدو في وجه «**نكتار**، ملكة جمال لبنان، ينظر إليه الناظر فيحسّ بأنه يسيل رقّةً وعذوبة»؟ فيوجه سؤالًا بهذا المعنى إلى صديقه وزميله في مجمع اللغة العربية بدمشق الشيخ محمد بهجة البيطار[٢] قائلًا:

---

(١) عضو المجامع العلمية في سورية ومصر والعراق، نال العالمية من الأزهر، وشهادة مهندس زراعي من السوربون في باريس، وكان أستاذ البلاغة في جامعة دمشق، وموسوعة في علوم العربية، توفي في أوائل السبعينيات.

(٢) سيدي الوالد رحمه الله حامل لواء الدعوة في بلاد الشام بعد عالمي الشام شيخيه عبد الرزاق=

بـالله سَـلْ لـيَ في الميـدانِ عالِـمَها الـشيخَ بهجـةَ بـل سـلْ عـالم الـشام
أيُـستَدَلُّ عـلى الخَـلّاق بالإبِـل الـ ـعجماءِ، للعنـق العوجـاءِ والهـامِ
ولا تـدلُّ عليـه العـين سـاحِرَةً مـن وجـه نكتـار ذات المنظـر الـسامي

فيجيبه الشيخ البيطار (رحمه الله) بالأبيات التالية:

إلى الأديـب التنـوخيِّ الـذي اشـتَهَرتْ آدابُـه في رُبـا لبنـانَ والـشامِ
إلى صـديقيَ عـزّ الـدين أُرسـلها تحيَّـةً مُزجـت مِنِّـي بإعظـامِ
أهـديتني مـن عـروس الـشعرِ مسألةً صِـيغَت لآلئهـا مـن فيـضك الهـامي
فـدونك القـولَ منِّـي غـيرَ ذي عـوجِ يهـدي إلى الحـقّ، يجلـو كـلَّ إيهـامي
أمّـا التـي جـازت البيـداء مُثْقَلَـةً عجـماءَ عَوجـاءَ تَعلـو شُـمَّ آطـامِ
فتلـك تُرْكَـبُ في الـصحراء جائبـةً قِفَارهـا، حـاملاتِ الـساغب[1] الظـامي
تغـذوه ألبانُهـا والـصوف كـسوته وفي الـسُرادِق مـأوى ليثهـا الحـامي
مـا أجمـل العـيشَ في حـلٍّ ومُرْتَحَـلٍ وأغـبر العـيشَ في حَـزن وآكـامِ

= البيطار وجمال الدين القاسمي، وعضو المجامع العلمية المذكورة آنفًا، وأستاذ أدب القرآن والحديث في جامعة دمشق، وكانت له بالمملكة صلة وثيقة، ومن آخر أعماله فيها تأسيسه لدار التوحيد في الطائف،تولى الخطابة والإمامة في جامع كريم الدين الشهير بالدقاق - وهو من أكبر جوامع دمشق - ما يزيد على ستين عامًا، توفي عام ١٩٧٦م.

(١) الساغب: الجائع التعب.

فـما القطـار كـما الرَّقطـاءِ ملتويًـا ... يطـوي الفيـافيَ مكـدودًا بـإضرامِ

ولا التـي قـد جَـرَت في الـبَرّ مـسرعةً ... تعلـو وتهـبط كـالأمواجِ في الطـامي

أشـهى وأجمـلَ مـن عُـوج الرقـاب إذا ... سـالت بأعناقهـا – الوديـان – والهـامِ

فهـل علـيهم جنـاحٌ مـن أخـي ثقـةٍ ... إذا اسـتدلُّوا عـلى المـولى بأنعـامِ

فهـي الـدليل عـلى الخـلاّق تُـذْكِرُهُم ... بـأنعُمِ اللهِ مـن بِـرٍّ وإنعـامِ

أمَّـا أولـو العلـم في الـدنيا فتُرشِـدُهم ... «قُـلِ انظُـروا..» [1] فَهْـي آيـاتٌ لِأَعـلام

تهـديهُمُ لبـديع الـصُّنع إن نظـروا ... صُـنْعَ البـديع بإمعـانٍ وإِنْعـامِ

تبـاركَ الله دلَّـت كُـلُّ بارقـةٍ ... في كـلّ شيءٍ عـلى سرٍّ لـه سـام

إنَّ العيـونَ التـي يَـسبيك منظرُهـا ... أوحـتْ لـك الـشِّعر في سـحرٍ وإلهـامِ

لكـنْ صـديقي أدامَ الله طلعَتَـه ... آدابُـه الغُـرُّ تنحُـو نحـوَ إسـلام

حُـرُّ الـشمائل لم يلحَـقْ بـه وَضَرٌ [2] ... عَـفُّ الخليقـة لم يعلـقْ بآثـامِ

إني أسـائله فـيما أحاولُـه ... مـن الجـواب عـلى سـؤلٍ لـه حـامِ

هـل أثخَـنَ الجـرحَ في الأكبـاد والهـةً ... إلاّ التـي أرسـلَت مـن طرفهـا الـدامي

وهـل أصـاب الفتـى يومًـا فأكمَـدَه ... إلَّا بُـروقُ لِحـاظٍ سَـهمها رامِ

---

(١) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

(٢) الوَضَر (محركة): وسخ الدسم واللبن، أو غُسالة السّقاء والقصعة ونحوهما، وما تشمُّه من ريح من طعام فاسد، الجمع: أوضار.

كيف السبيل إلى ودٍّ يدومُ على مَرّ السنين ويزكو غَرسُهُ النامي
يهنا به كلُّ مَزْهوٍّ بصاحبِهِ وفي مودّة أخوالٍ وأعمامِ
يكونُ من ثمرات الحبّ بينهما نبتٌ تفتَّحَ عن زهرٍ بأكمامِ
غُرٌّ ميامينُ في خَلْقٍ وفي خُلقٍ تحكي مطالعهم أشبال آجامِ

الجمالُ نعمةٌ من الله التي زان بها الكون؛ ليكون آيَةً من آيات جميل صنعه، تحلو به الحياة، وتصفو القلوب، وترتاح العيون، وترقُّ المشاعر وتسمو، وتتعلق النفوس بخالقها، وتستدلّ عليه به؛ ولكن هل الجمال يقتصر على الخد الأسيل، والخصر النحيل، والعيون الحور العين، وغير ذلك مما تُوصف به النساء؟ وهل نستدلُّ على الخلّاق بتلك العين الساحرة من وجه «**نكتار**» أم بتلك الجمال التي تجوب الصحراء بخَلْقها العجيب، الذي صنعه الله فأحسن صُنْعه؛ ليكون الوسيلة الملائمة للتغلب على قسوة الصحراء، وصعوبة اجتيازها، والصبر على شدائدها؟

الحقيقة أنّ الجمال ليس وقفًا على الإنسان والحيوان **وكل ذي حياة، بل هو سمة** مشاعة في الكون الفسيح الذي أتاح الله للإنسان أن يستعمره، ويستمتع به؛ ليشكر آلاء ربّه، وليكون له في كل مظهر من مظاهره ما يثير تفكيره، ويوسع آفاق عقله، ويذكّره بنعم ربه، إن الجمال الحقيقي تناسقٌ بديعٌ بين عناصر المخلوقات تشير كلها إلى الواحد الأحد الفرد الصمد:

وفي كلّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تدلُّ على أنّه واحد

وقد اقتضت حكمة الله أن يجمع للإنسان فيما حوله المتعة والفائدة جميعًا، وتفرّد

بذلك، فاستحق التفرّد بالشكر والألوهية، اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٥ – ١٤].

ثم اقرأ بعض الآيات الأخرى مما يأخذ بيدك إلى الله، ويملأ قلبك بحبه وخشيته والأمل فيه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦] ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [ق: ٦ – ١١].

إن الله يخاطب أصحاب العقول السوّية، والنفوس المطمئنة الرضية، الذين يجدون في كل ما حولهم آيات باهرات تزيدهم إيمانًا ويقينًا وإقبالًا على الله؛ ولذا أشار سبحانه في الآيات السابقة إلى الذين يتفكرون ويعقلون ويذكرون ويشكرون، وإلى ربهم يُنيبون.

أما أسرى «**نكتار**» ومثيلاتها فقد وجدوا سلامة عقولهم في فقدانها، وغاية حياتهم في مصرعها، وراحة قلوبهم في الاستجابة لإغراء الشيطان وعصيان الرحمن، يقول **مسلم بن الوليد** (ت ٢٠٨هـ):

وما العيشُ إلَّا أن تروحَ مع الصِّبا وتغدو صريعَ الكأس والأعيُن النُّجْلِ

ويقول جرير بيته المشهور:

إنَّ العيون التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

ويقول جميل بثينة:

خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلًا بكى مِنْ حُبّ قاتله قبلي؟!

لقد جعل الله في كل شيء آيةً سماوية ترشد إليه وتدل عليه، حتى «**نكتار**» **هذه آية** من آيات الله، كان يمكن أن تجد الزوج الذي تسكن إليه، وتُحاط حياتها بالمودة والرحمة، ويبث الله منهما بنين وبنات، ولكنها ومثيلاتها جعلنَ فتنتهن بضاعةً تباع وتشرى، وبلاءً أودى بكثير من العقول، وغير كثيرًا من القيم المثلى، وصورة الأخلاق التي تفاخر الناس بها من أبعد الأزمان، فالعقل مرفوضٌ إن صدّ عن الهوى، **والجورُ** أحبُّ من العدل، والذل في الحب أشهى من العزّ، يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد:

أتقتلني ظلمًا وتجحدني قتلي وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل؟!

أطـلابَ ذَحْـلي لـيس بي غـيرُ شـادنٍ بعينيـه سـحرٌ فـاطلبوا عنـده ذَحـلي
أغـارَ عـلى قلبـي فلمـّا أتيتـه أُطالِبُـه فيـه أغـارَ عـلى عقـلي
إذا جئتُهـا صـدّت حيـاءً بوجهها فتهجـرني هجـرًا ألـذَّ مـن الوصـلِ
وإن حكمـت جـارت عـليّ بحكمها ولكـنَّ ذاك الجـوْرَ أشـهى مـن العـدلِ
وأحببـتُ فيهـا العـذَلَ حبـا لـذكرها فـلا شيءَ أشـهى في فـؤادي مـن العَـذْلِ
أقـولُ لقلبـي كُلّـما ضـامه الأسـى إذا مـا أبيـتَ العـزّ فاصـبرْ عـلى الـذلّ
وَجَدتُ الهوى نَصْلًا من الموت مُغْمَدًا فجـرّدتـه ثـم اتكـأتُ عـلى النـصلِ

هذا بعض ما تفعله عين «نكتار»، إنها تجعل درب ضعيفي الإيمان إلى مهاوي الضلال والفساد سهلًا ممهّدًا، وتعطّل فيهم تفكيرهم، وتنزع عنهم حياءهم، فهذا عُمَر ابن أبي ربيعة يزور صاحبته في الليل، فلما انبلج الفجر، وخشيا الفضيحة؛ استعانت بأختيها اللتين تعرفان من أسرارها ما هو خافٍ على الناس، فَأَحَطْنَ به متنكّرا، واجتزنَ به مضاربَ القوم، ثم قلن له:

فلمـّا أجزنـا سـاحَةَ الحـيّ قُلْـن لي ألم تتّـقِ الأعـداء والليـلُ مُقمِـرُ
وقُلْـن: أهـذا دأبُـك الـدهرَ سـادرًا أمـا تـستحي أو ترعـوي أو تفكّـر؟!

ولو عقل هؤلاء الغاوون لعرفوا أن كل شيء زائل فانٍ إلّا الله، يقول المتنبي:

لـو فكّـر العاشـقُ في منتهـى حسـن الـذي يَـسبيه لم يَـسْبه

وما أجمل أن يبني الإنسان حياته مستمتعًا بما أحلّ الله، واضعًا نصب عينيه قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وحينذاك لا يتسع

قلبه إلا للخير، ويرى في كل شيء طريقًا يهديه إلى الله، ويكون هواه تبعًا لطاعته وعبادته، ويستعمل نَعَم الله في جوٍّ من الخشية والأمل والرجاء، قال الشاعر:

يقولـــون: لا تنظـــر، وتلـــك بليّـــةٌ ... بَـــلَى كُـــلّ ذي عينـــين لابُـــدّ نـــاظُر

ولـيس اكتحـأل العـين بـالعين ريبـةً ... إذا عـــفّ في مـــا بيـــنهنّ الـــضمائر

وما قصة يوسف الصدّيق عليه السلام وامرأة العزيز بعيدةٌ عَمّن أحبّ أن يعرف الهدى، ويميّز الهداية من الغواية[1].

(١) مجلة الفيصل، العدد: ٢٣٣.

(٧)

الحاسوب الإلهي

استرعى انتباهي منذ فترة حديثُ نفرٍ من الخبراء في شؤون الحاسوب (الكومبيوتر)، وشغلني الأمر عما كنت أبحث عنه في بطون الكتب، ووجدتُني منصرفًا إلى الاستماع إليهم، متعجبًا من قدرة الجهاز على اختزان المعلومات، والذاكرة العجيبة التي تمدُّك بما تشاء من معارفَ بلمسة صغيرة، وتتنقل بك بين رياض المعرفة وميادين الفكر والثقافة بيسر وسهولة، تجمع لك مكتبةً في صحيفة، وعلمًا بكامل فروعه في إيجاز ووضوح، وتختصر لك زمن المراجعات المضنية، وتزودك في لحظات بما أفنى العلماء أعمارهم في جمعه وتصنيفه...، وكنت كلما أوغلوا في الحديث أزداد عجبًا، ورأيتني أدنو منهم حتى خالطتهم، وكنت الجاهلَ الوحيد بينهم في الحواسيب وشؤونها، فقلت لهم: هذه الذاكرة العجيبة هل تختزن معلوماتها حتى يرث الله الأرض وما عليها؟ والإنسان الذي يلقنها المعلومات إذا اعتراه ضعفه الإنساني فأخطأ في عمله، فهل تقوّم الخطأ فلا تقبل إلا الصحيح السليم...؟ ونحن - معشرَ البشر - خلقنا الله سبحانه وتعالى في أحسن تقويم، ووهبنا من النعم ما لا نحصيه، غيرَ أن الوهن يدبُّ إلينا فيكلُّ البصر، ويثقل السمع، ويضعف التمييز، وتشيخ الذاكرة، ونُردُّ إلى أرذل العمر، إذا أنسأ الله في الأجل؛ فلا نعلم من بعد علمٍ شيئًا، فهل هذا الجهاز بَنْجوةٌ من ذلك كله؟ فالتفت إليّ أحدهم قائلًا: هذا الجهاز من صنع الإنسان الذي

علمه الله ما لم يكن يعلم، وهو في نفسه صحيفةٌ بيضاء ليس فيها ما يفيد، والإنسان هو الذي يزوده بالمعلومات مهما كانت واسعة أو متنوعة، عميقة أو سطحية...، ويسجل الخطأ كما يسجل الصواب، ويبقى أخرسَ صامتًا حتى تأمره أنت أن يتكلم.

وقال آخر: إذا كانت الأمراض تصيب الإنسان والمخلوقات الأخرى؛ فإن هذه الحواسيبَ قد ابُتليت ببعض الفيروسات التي تغزوها فتفسد ما فيها وتعطّل مواهبها، وتظهر للإنسان ضعفه الإنساني الذي لن يبلغ الكمال المطلق مهما سعى إلى ذلك سعيه...، وتكلم رجل ثالث كان يجلس في زاوية المكتب فقال: هذا الجهاز كغيره من المخترعات والمكتشفات العظيمة، ينصرف للخير إن شئت، وينجرف للشر إن أحببت، لقد استطاع العقل الإنساني بوساطة هذه الحواسيب العجيبة أن يهتك حُجُبَ الأسرار، وأن يفسد برامجك دون أن تدري، وأن يطلعَ على ما تبالغ الشركات الكبرى والمصارف التي تتحكم باقتصاد العالم في إخفائه...، وقد يمهّد الطريق للعصابات الكبرى فتقوم بأعمالها الإجرامية، وتهتك الحرث والنسل...، هو صورة للإنسان نفسه الذي تتجاذبه نوازع الخير والشر.

وسمعت من بعيد صوت قارئ للقرآن الكريم يتلو فيه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ١٩ – ٢١]، فقلت في نفسي: أليست هذه هي الذاكرة العجيبة التي لا تنسى شيئًا؟ يمرُّ العمرُ كلّه والسمعُ والبصر والجلود تسجل فلا تترك شاردةً ولا واردةً، ثم يُقضى الأجل، ويعود الإنسان إلى

التراب، ويفنى جسده، وتبلى عظامه، حتى إذا شاء الله **أحيا العظام وهي رميم، وبعثها** كما خلقها أوّل مرّة، وذاكرتها حيّة لا يعتريها وهن، ولا يمحوها بِلَى، ولا يسطو عليها (فيروس)...، إنها الحاسوب الإلهي الذي يتجسد فيه الكمالُ المطلق الذي لا يكون إلاّ لله الخالق المدبر الذي أحسن كل شيء خلقه.

ومددتُ يدًا مرتعشة إلى القرآن الكريم أقلب الصفحات، وأحاول تدبر الآيات، فوجدت فيه الدعوة إلى الوحدانية، والهدى الذي أرسل الله أنبياءه به، ولكنني رأيت فيه كذلك بذور العلوم والمعارف التي تسعى البشرية إليها، وكلّما عَرَفتْ منها شيئًا ازدادت معرفتها بجهلها.

لقد وهب الله الإنسان نعمة العقل، وأمره أن يتفكر في الكون كله، وجعل ذلك كله طريقًا إليه عن طريق الإيمان القلبي، والعقل المفكر في آلاء الله...

وأُراني أعود إلى بداية الحديث وأنا أقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٣ – ٢٤].

لقد جعل الله أعضاء الإنسان حجةً عليه يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأودع في كل عضو ذاكرة لا تضل، ولا تنسى، ولا تكذب، ولا يعتريها وهن، وأحصى كلُّ عضو بإذن ربّه كلّ صغيرة وكبيرة، وكل ما جناه المرء من حسن أو قبيح، وما جاهر به أو أخفاه، أليس هذا هو الحاسوب الكامل؟ إنه الحاسوب الإلهي الذي تنزه عن كل **نقيصة.**

رأيت مرة رجلًا صالحًا يبكي بكاءً مرًّا، وبيده القرآن الكريم، وقد وضع إصبعه على آية كريمة يقرؤها، ثم يرددها، وكلما ردّدها مرة اشتد بكاؤه، وسمعته يقول بين العبرات والآهات: يا أيها المغترون؛ استمعوا إلى ربكم يقول: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٨ – ٤٩]، بنظرة واحدة يستعرض المرء حياته كلها... وتركت الرجل يبكي، ولسانه يلهج بالتضرع والدعاء والاستغفار؛ ومضيت وأنا أردد: لا كمال إلا لله [1].

(١) مجلة الفيصل: العدد: ٢٢٠.

(٨)

الحضارة المجنونة!

مرَّت عصورٌ كان المسلمون فيها يسيرون في الأرض مجاهدين في سبيل الله، تحت لواء التوحيد، ينشرون كلمة الله، ويُبلّغون رسالة الإسلام...، لقد ذهبوا في الأرض شرقًا وغربًا، وحكموا شعوبًا وأممًا، وفتح الله عليهم دنيا الأكاسرة والقياصرة، وغدوا في الدنيا هم القادَة السادة، غيرَ أنّ المنهج الإسلامي كان دستورهم في الحرب والسلم، يحاربون لله، ويهادنون إذا عَلَتْ كلمة الله، ويسجّلون أحداثًا إذا سمعها الناس هذه الأيام حسبوها ضربًا من الخيال.

روى البَلاذُري[1] في كتابه «فتوح البلدان» (ص:١٨٧): أن المسلمين حينما دخلوا حمصَ، وأخذوا الجزية، وجمعوا الخراج من أهلها؛ سمعوا أن هرقل عظيم الروم يجمع لهم الجموع، ويُحكم التدبير للقضاء على الإسلام وأهله، فاضطروا إلى مغادرة حمص؛ ليلتحقوا بجيوش المسلمين في اليرموك، وأعادوا إلى أهلها ما كانوا أخذوه من أموال، وقالوا لهم: لقد شَغَلَنا ما نحن فيه عن نصرتكم والدفاع عنكم في مقابل ما دفعتم من مالٍ لم يعد لنا فيه حق، وعجب أهل حمص مما سمعوا، ورأوا الأموال الهائلة تُلقى بين

(١) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، مؤرخ، جغرافي، نسّابة، من أهل بغداد، توفي سنة ٢٧٩هـ.

أيديهم، فقالوا: والله لَحكْمُكم أحبُّ إلينا مما كنّا فيه، ولن يكون حربًا عليكم، ولندفعن جند هرقل معكم، وَلَنقفن في وجهه مع عاملكم.

وروى البلاذري أيضًا (ص١٣ – ١٥): أن عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه – لما استُخلف أتاه وفد من أهل سمرقند، وشكوا إليه قائد المسلمين في تلك الديار قتيبة ابن مسلم الباهلي؛ لأنه دخل مدينتهم غدرًا دون إنذار، فغضب عمر - رضي الله عنه - وأرسل إلى عامله أن أجلس لهم القاضي، فنصب لهم جَمْيًعا الباجي قاضيًا، سمع القاضي كلام قتيبة، وسمع كلام أهل سمرقند، ثم أطرق متفكرًا والدنيا كلها تنتظر حكم الله، ورفع رأسه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨] ، وأصدر حكمه بإخراج المسلمين من البلدة، لم يصدّق أهل سمرقند ما سمعوه: جيش يسير مجاهدًا، يدخل المدينة المحصنة ليتابع سيره، وليأمن الغدر من خلفه، يأمره القاضي بالخروج؛ لأنه لم يحرز نصره الكبير على النهج الذي أمر به الله؛ فالحرب في نظر الإسلام ليست قوةً وجبروتًا ومغانم، ولكنها إزالةٌ لفساد، ودعوةٌ إلى خير، وإشاعةٌ لمُثُل وقيم تزكو بها الدنيا، وتسمو بها النفوس. وسمع القادة الحكم، فلم يعترض معترض، فكره أهل سمرقند أن يحاربوا قومًا هذا حالهم، وهذه شريعتهم وأخلاقهم، وأقرّوا المسلمين على ما هم عليه، وعاشوا بينهم، وعلت هناك كلمة الحق وما زالت، برغم المحن والنوائب وكيد الكائدين.

ومرّ أمامي صورة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وهو يوصي المسلمين قبل سيرهم إلى الجهاد، وينهاهم أن يقطعوا شجرةً، أو يفسدوا زرعًا، أو يهدموا دارًا، أو

يقتلوا طفلًا أو امرأةً أو شيخًا لا يستطيع الدفع عن نفسه، وأمرهم ألا يزعجوا من حبسوا أنفسهم في الصوامع للعبادة.

ويردّني صوت المذيع في التلفاز إلى دنيا الناس الآن، ويمر شريط طويل من صور المآسي في فلسطين والبوسنة والهرسك والصومال وكشمير...، وأُحسّ بأن الشيطان قد أوقد في كل مكان نيران فتنة تحرق الأخضر واليابس، وأن الأرض تهتز بتأثير هدير المدافع، وأزيز الطائرات، وفعل وسائل الدمار التي تذهب بالديار والأعمار...، لقد أسلمت الدنيا قيادَها للشيطان يقودها، فانتُهكت حُرُمات كانت مصونة، وسُلبت أموال كانت محفوظة، وخُرِبت ديار كانت عامرة...، وقامت الدول الباغية الظالمة ترمي المسلمين في كل مكان عن قوس واحدة، بوحشيةٍ يرى إبليس الرجيم نفسه عاجزًا عن إدراك مداها.

لقد تاهوا على الدنيا بحضارتهم، ونظروا إلى الأمم الممزقة المستضعفة بسببهم نظرة زراية ومهانة، وتناسَوا أن الحضارة الحقيقية هي حضارة الحق والعدل والخير، وسموّ النفس الإنسانية، وإرادة السلام والطمأنينة للناس جميعًا.

هذه دولة كبرى تشنّ على الصين حربًا ضروسًا؛ لأن إمبراطورها الشاب رفض أن تسمّم شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) شعبه بما تحمله من أفيون، إنها (حرب الأفيون) التي أوقدت نيرانها بريطانيا (المتحضرة)!.

وهذه لافتات توضع في مكان بارز من المطاعم والمقاهي، وقد كتب عليها بخطٍّ عريض: «ممنوع دخول الكلاب والسود»... إنها أمريكا (المتحضرة).

وهاتان دولتان عظيمان تكتسحان بلاد المسلمين في الشرق والشمال الإفريقي،

وتحاولان أن تعيّرا ثيابها، وتستأصلا جذورها، وتنسياها لغتها ودينها بكل وسيلة... إنهما بريطانيا وفرنسا (المتحضرتان)!

وهذه أعظم بل أعتى دولة على وجه الأرض تمد إسرائيل بالمال والسلاح والتأييد في المحافل الدولية؛ لتجعل من شعب مسالم عريق كريم شراذم من اللاجئين، وبقايا شعب كانت له أرض وكان له وطن.

كيف يرضون عن الإسلام وهو لا يقبل ظلمًا لأحد، وهم أسرى شهوتين هما دستور حياتهم: المال والتسلط على الناس جميعًا؟!

كيف لا يُقرّون كل ما ينزل بالإسلام والمسلمين من كوارث، وهذا الدين يضع في كل شيء معنًى إلهيًا ساميًا، وهم يضعون في كل شيء معنىً شيطانيًا شريرًا؟!

إن العالَم (المتحضر) اليوم مريض يحتاج إلى علاج نفسي يردُّه إلى إنسانيته، إن كانت حال هذه الدول هي الحضارة فهي دون شك حضارة شريعة الغاب، إنها - وبكل تأكيد - حضارة مجنونة[1].

(١) مجلة الفيصل، العدد: ٢١٠.

د- التقديم للكتب:

(١)

تقديم لكتاب

الإسلام والعروبــة[١]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين،

وبعدُ فقد تكرّمت الأستاذة الأديبة د. منى إلياس فطلبت إليّ أن أكتب مقدمة لكتابها هذا الذي جمعتْ فيه مقالاتٍ ودراساتٍ نشرتها في الصحف والمجلات في السنوات القليلة الماضية، وتناولت فيها موضوعاتٍ كثيرةً تتصل بتاريخنا وبواقعنا، وبمناهجنا التربوية التي تُعدُّ ناشئتنا في ضوئها لتسلّم راية الوطن، والسعي إلى رفعته، وإحلاله المكان اللائق في هذا العالم الذي اضطربت فيه، وتنازع الأقوياء على امتلاك ثرواته وأراضيه.

الكتاب بجملته روضةٌ جَمَعَتْ من كل بستان زهرة، فقد درست مؤلفته الأديبة فيه كتّابا، وبيّنت ما فيها من أفكار بنّاءة، وتحدثت عن الأدب والأدباء، والنقد والنُّقّاد، ورسمت المنهج الذي ينبغي أن نلتزمه في بناء الوطن وأهله، فنستفيد من عظمة تاريخنا دروسًا نواصل بها المسيرة، ونتخذ من مساوئه عبرًا وعظاتٍ تجنبنا الزلل، وترأب

(١) الإسلام والعروبة: الدكتورة منى إلياس، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

الصَّدْع لنعيد إلى أمتنا وَحْدَتها وقوتها ودورها في بناء الحياة الإنسانية...، كل ذلك في ضوء خبرة خَصْبة بما تفجر في الكون من علومٍ ومعارف، نأخذ منها ما يغني مسيرتنا، وندع منها ما لايتفق مع طبيعتنا وقيمنا.

ولعل من أجمل ما قرأت في هذه المنشورات ما يشير إلى اهتمام الكاتبة الأديبة بتوطيد أواصر المودة والتعاون بين أبناء الأمة مسلمين ومسيحيين، فإلهنا الإله واحد، والوطن واحد، والمصير واحد؛ فقد درست بعض كتب السيرة النبوية، وعرضت مادة بعض الكتب الإسلامية؛ ككتاب د.**سعيد رمضان البوطي**: «الجهاد في الإسلام» **وكتاب** «في ظلال الحديث الشريف» للدكتور نور الدين العتر، وكتاب «**الإسلام، أوربة، الغرب**/ رهانات المعنى وإرادات الهيمنة» لمحمد أركون، وكتب عديدة غيرها، كما ألقت محاضرة تناولت فيها التقارب الإسلامي المسيحي، وأن هذا التقارب هو الذي ينير الدرب، ويعين على السير في **الطريق الصحيح**.

تقول المحاضرة: «لا حاجة لي للتدليل على مدى العلاقة الوطيدة بين الدينين المسيحي والإسلامي عبر التاريخ، فنحن أبناء وطن واحد، وأمة واحدة، تحمل اللغة **الواحدة، والصفات الواحدة...، ديننا المسيحي والإسلامي يدعو لمكارم الأخلاق،** وينبذ الشر والعدوان، وينظر إلى بناء جيل قويّ يَتسلّح بالخلق الفاضل والتسامح..».

وفي حديثها عن كتاب «محمد: **الرسالة والرسول» لنظمي لوقا تقول: «والمنطلق** الذي ينطلق منه المؤلف هو وحدة الأديان السماوية..».

والأديبة الكاتبة لم تخرج في هذا كله عما جاء في القرآن الكريم والإنجيل، فقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾

[الشورى: ١٣/٤٢]، وروى أبو هريرة في الحديث المتفق على صحته عن الرسول ^ أنه قال: «إنا - معاشرَ الأنبياء - دِيُننا واحدٌ، وأنا أولى الناس بابن مريم؛ لأنه ليس بيني وبينه نبي».

وهذه الأخوة بين الرسل والوحدة بين الأديان واضحتان في الكتب المنزلة، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦/٦١].

وجاء في إنجيل يوحنا (١٦: ١٢ و ١٣): «إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن، وأنا متى جاء روح الحق؛ فهو يرشدكم إلى الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية»، والمقصود بذلك هو محمد عليه الصلاة والسلام الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣/٥٣-٤].

وقد عقد الله هذه المودة بين الإسلام والمسيحية في كتبه المنزلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢/٥-٨٣].

لقد أعارت الكاتبة الأديبة اهتمامًا كبيرًا للتقارب الإسلامي المسيحي، وأنه ضمانة لوحدة الأرض وأهلها، وقد اقتبسنا من القرآن الكريم وإنجيل يوحنا ما يدل على

ذلك، وفي الكتب المقدسة إشارات جلية كثيرة تدل على التوحيد الخالص، تراها في الفصول والأعداد (وهي كالسور والآيات في القرآن الكريم).

ففي إنجيل مرقس: «فأمان يسوع: إن أول الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الربُّ إلهنا ربٌ واحد» (٢٩/١٢)، وفي إنجيل يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (الإصحاح ٣/١٧)، وقد ورد أشباه ذلك في مواضع كثيرة من إنجيل متى (٢/٣، ١٧/٤و ٣٣، ١٠/٦ و ١٣..)، ولوقا: ٩/١٠ و ١١).

وتُحمد الكاتبة غَيرتُها الشديدة على لغتنا القومية، فقد خصّتها بكلمات كثيرة تحدثت فيها عن العربية، وضرورة الحفاظ على صفاتها ونقائها، والتنبه لما يبذله أعداؤها من مستشرقين ومستعربين من جهود محمومة لإفسادها، وتشويه صورتها، وبَتْر الصلة بين أبنائها المعاصرين والسلف الذين كانت اللغة العربية تجري على ألسنتهم ساحرة مشرقة، وهي تحضُّ على السخاء في إنفاق المبالغ الطائلة في خدمة هذه اللغة؛ لتكون سلاحًا حضاريًا نُجلبه به أعداء لغتنا ووحدتنا وحضارتنا، وما أكثرهم اليوم وفي العصور الماضية.

تقول الكاتبة في مقالتها: (اللغة العربية ليست نحوًا وصرفًا فحسب): «لم تعد اللغة العربية اليوم - في جوهرها - نحوًا وصرفًا، وإنّما تحولت إلى سلاح استراتيجي يقيم الحضارة العربية ويهدمها، ويحمي الأمة ويميتها، بل أكثر من ذلك، لقد أصبحت العربية تشكل الجغرافيا السياسية للعالم العربي..»، وتُنهي مقالها هذا بقولها: «لا يكفي أن نعمل على استصدار قرارات من الأمم المتحدة باعتماد اللغة العربية لغةً رسمية في مؤسساتها، المهم أن نجعل هذا واقعًا يقوى ويتجسد كل يوم، وهذا نضال لا يقلُّ

شرفًا عن أي نضالٍ آخر».

وقد افتتت الكاتبة في السبل التي سلكتها لنصرة اللغة، فتحدثت عن خصائصها، وترجمت لبعض أعلامها، وهاجمت بعنف الدعوة الهدامة لبتر الصلة بالعصور الماضية، والاستجابة العمياء لما يطلع به الغرب من مذاهب أدبية حديثة كالسريالية وغيرها، وتبعية بعض العرب في نصرة العامية، واصطناعها في معالجة قضايانا الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها بدعوى أنها لغة الحياة.

وفي المقالات ما يدل على ثقافة الكاتبة الخصبة، واهتمامها بما يجري في حقول المعرفة المختلفة، فهي تتحدث مثلًا عن الاستنساخ وجدل العلم والدين والأخلاق حوله، وتنظر بحسرة مؤلمة إلى تمزُّق الأمة العربية، فتدعو إلى حوارٍ هادئ بنّاء، فإذا عزَّ علينا أن نتفق؛ فلنتعلم كيف نختلف، وتتناول الصحافة ودورها كما هو كائن، وكيف يجب أن يكون، وتدعو دعوةً حارّةً إلى الاستفادة من التاريخ المشرق، والعلوم العصرية التي نستطيع بها أن نلحق بالركب الحضاريّ دون خروجٍ على أصالتنا وانتمائنا العربي... إلى غير ذلك من الموضوعات الكثيرة المثيرة.

أشكُر للكاتبة الأديبة حُسْنَ ظنّها بي على ضعفي وتقصيري، وأسأل الله أن يوفقها إلى المزيد من هذه الكتابات التي تشدُّ أواصر المحبة والألفة بين أبناء الوطن الواحد، وتحاول إعادة الأمة العربية إلى موضعها الغابر في قيادة العالم على أسس من الخلق القويم، والعدل المستقيم، والرغبة الصادقة في إنشاء عالمٍ أفضل، لا يستبدُّ فيه القوي بالضعيف، ولا يستعلي فيه غني على فقير، أو أبيض على أسود، فالبشر جميعًا إخوة، كلهم لآدم، وآدمُ من تراب.

(٢)

تقديم لكتاب
من روائع البيان العربي[١]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيِّ العربيِّ الأمين، أفصح من نطق بالضاد، وبعد:

حين ألقى إليَّ المؤلّف كتابه (من روائع البيان العربي) رأيت فيه ما يُكمّل صورته في نفسي من جهد دؤوب، ومخالطة واسعة لكتب التراث، وذوق رفيع في الاختيار، وتنوّع كثير في الموضوعات، ولا شك أن كل عربي يجد فيه ما يحب، ففيه الحكايات الجميلة، والأشعار الرائعة، والأمثال السائرة، والأقوال الفصيحة الآسِرَة، والحكم البليغة، وكأنه يريد كتابًا يصدق فيه قول الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) في كتابه (الحيوان) حين عاب عليه بعض خصومه انصرافه إلى تصنيف الكتب فقال: (عجبت الكتاب، ونعم الذُّخر والعُقدة[٢] هو، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتَغَل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة...،

(١) من روائع البيان العربي: الأستاذ محمد مروان مراد، دار الشرق للطباعة، دمشق، ٢٠٠٥م.

(٢) العُقدة (بضم العين): ما فيه من بلاغ الرجل وكفايته.

والكتاب وعاء مُلئ علمًا، وظَرْفٌ حُشيَ ظُرْفًا، وإناءٌ شُحِن مُزاجًا وجِدًا، إن شئت كان أبيَنَ من سحبان وائل[١] وإن شئت كان أعيا من باقل[٢]، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه...، وبعد فمتى رأيت بستآنا يُحمل في ردن، وروضةً تُقَلُّ في حجر، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترحم على الأحياء؟...

وإني أقول الحق حين أصف هذا الكتاب بأنه حوى من كنوز الأدب البليغ وأقوال السلف ما يجسد حقيقة وصف الجاحظ للكتاب، وما يتركه من آثار حسنة في نفوس القارئين وعقولهم.

أشكر للأستاذ مروان مراد ثقته ووفاءه، وأسأل الله أن يسبغ عليه مزيدًا من الصبر في البحث والتنقيب، واستخلاص ما ينمي معارف أجيالنا، ويوجههم إلى ما ينفعهم بعد أن شغلتهم دنيا التلفاز والإنترنت والحاسوب، وصرفتهم في كثير من الأحيان عن أداء ما لوطنهم عليهم من حقوق، وما لأمتهم من آمال تنتظر تحقيقها منهم.

(١) سحبان بن زُفر الوائلي (ت ٥٤هـ) ضُربت الأمثال بفصاحته وبلاغته.

(٢) باقل الإيادي، جاهلي، لم تعرف سنة وفاته، يضرب المثل بعِيّه، قيل: اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا، فمر بقوم فسألوه: بكم اشتريته؟ فمد لسانه ويديه (يريد أحد عشر) فشرد الظبي وكان تحت إبطه.

الفَصْلُ الثَّالِث

الأستاذ
عاصم البيطار
في
عقول المعاصرين وقلوبهم

وبيان الجوانب المشرقة السامية
من شخصيته الفكرية والخُلقية والتربوية والثقافية

صفحة من حياة عاصم البيطار الإنسان

الدكتور مازن المبارك

أيها الحفل الكريم..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. والشكر للأستاذ الدكتور شاكر الفحام على كلمته الترحيبية الجميلة وللزميل الصديق الأستاذ الدكتور محمود السيد على كلمته الوافية الوفية.. وأجزل الشكر للسادة المجمعيين الذين أولَوني ثقَتهم وانتخبوني لأكون واحدًا منهم، ولستُ صاحب مَزيّة فاقت ولكنها رغبة إخوان كرام لا أقوى على ردّها، أرادوا ألّا يتركوني لنفسي عاكفًا على ما تدعوني إليه من خاصّة عملي، وشاؤوا أن أحظى بشرف الصُّحبة ونُبل الرسالة وخدمة العربية أشاركهم عبء العمل بها ولها، وأتحمل معهم ما يتحمّلون في سبيل حماية العربية وتعزيز مكانتها[1].

أيها السادة..

لن أحدثكم عن الأستاذ عاصم البيطار المجمعي فلقد مرّ بالمجمع بآخرة من حياته، ما دخل حتى رحل، وما سلّم حتى ودّع، ولقد كان من شواهد النحو شاهد طالما كان موضوع نقاش بيني وبين عاصم، وكم تذاكرنا أوجه إعرابه وهو قولهم: «كأنك بالدنيا لم تكن» يريدون به التعبير عن سرعة انقضاء الحياة الدنيا، ولقد مضى

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور مازن المبارك – حفظه الله – في حفل استقباله في المجمع يوم ٢٠/ ٩/ ٢٠٠٦م.

رحمه الله وكأنه بالمجمع لم يكن إذ مرّ فيه مرور النسمة العابرة، وكم تمنّيت لو طال عمره فيه وكان اليوم مكاني بينكم وكنت مكانه، لقد علّمني بموته معنًى من معاني قوله ﷺ : يأتي على أمتي زمانٌ يمرُّ فيه أحدُكم بقبر صاحبه فيقول يا ليتني كنت مكانك. لقد كان كالنجم بدا فعلاً فسطع ثم هوى واختفى، ولكن علمه وفضله ومآثره لم تختف بل ما زالت في كتابه المسطور وعلمه المنشور. ولقد عرفتم مراحل حياته وعرفتم الكثير من صفاته وعرفتم آثاره العلمية في طلابه وفي كتبه المنشورة تأليفًا وتحقيقًا، فلقد فصّل الحديث عن ذلك كله السادة الذين استقبلوه في المجمع، والسادة الذين شاركوا في تأبينه، وليس الزمن بين حفلي استقباله وتأبينه بطويل، ولكن الحزن عليه طويل، وكل ذلك منشور في عددين من أعداد مجلتكم وما صدورهما عنا ببعيد.

وإني أستأذنكم أن أستبدل بالحديث المكرر عن علمه نشرَ صفحة من حياة عاصم البيطار الإنسان، وهي صفحة استمرّت حياتنا معًا في إنشائها ستًا وخمسين سنة، صحبته فيها منذ عرفته أول يوم على باب دار المعلمين العليا في المبنى القديم بجامعة دمشق حيث وقفنا ينتظر كل منّا دوره للمثول أمام اللجنة الفاحصة وبقيت برفقته منذ عرفته في ذلك اليوم إلى أن فارقنا فشيّعته، ست وخمسون سنة ما افترق أحدُنا عن الآخر أسبوعًا واحدًا إذا كنا في بلد واحد، ولقد صحبته في حلّه وترحاله، أقمنا معًا وسكّنا معًا وسافرنا معًا إلى محافظات القطر وقراه وإلى تركيا وإلى المملكة العربية السعودية... وعرفته زميلًا طالبًا وزميلًا معلّمًا، وصاحبًا وأخًا صديقًا، عرفته في رضاه حين يرضى وفي غضبه حين يغضب، وفي جدّه وفي مرحه وطربه حين يطرب، فما

أخرجه الغضب عن حلمه وما أخرجه الطرب عن وقاره، إنه هو هو في جميع حالاته إيمانًا بربه وصفاء في قلبه، ولقد وقفت على محمود مذهبه وعرفت جميل خلقه ورأيته يغيث الملهوف ويعين الضعيف ويكرم الضيف.

ولم يـــكُ أكثـــرَ الفتيـــان مـــالا ولكـــنْ كـــان أرحـــبَهم ذراعًـــا

قبس من أبيه الشيخ الجليل تدينا صادقًا وحبا للعربية واستقامة في السلوك، لم أسمع منه في الصحبة التي استمرت نيّفًا وخمسين سنة كلمةً **تؤذيني**، ولم أر منه سلوكًا **يُؤخَذُ عليه، كان يعرف للمجالس حقوقها**؛ من توقير الحاضرين ومعرفة أقدار الناس **والمحاو**رة بلطف وإيناس، دون أن ينسى توجيه الحديث إلى ما ينبغي توجيهُه إليه ليصل المجلس إلى غرضه ويحقّق الغاية منه.

أيها السادة..

لو عرفتم الأستاذ البيطار كما عرفته لعرفتم أيّ خسارة حلّت بفقده إنه الصديق الذي تستطيع أن تملأ كفك ثقةً به، وأن تطوي نفسك على حبه، وأن **ترى فيه ذاتك إذا حاورته**، وعقلك إذا سألته، وملاذك إذا حزبك **أمرٌ، ونفسَك إذا استكتمتَه** السّر **والعُضد** الذي يُشدّ به الأزر.

كان كهلًا فتيا، وكانت همته تطلّ من وراء عمره فإذا هي شابة فتيّة في جسم رجل كهل.

كان رحمه الله يحب الناس كل الناس، ويحب العلم حب **مطالعة ودراسة وتتبّع**، وكانت لنا في ذلك جلسات تأخذ الجلسة منا يومًا من صباحه الباكر إلى **مسائه المتأخر** – وقد أتى علينا زمن كنا نُنهي **كل يوم من أيامه كتابًا، نقرأ نثرًا شعرًا، نحوًا لغة** معجمًا، وكنت إذا تعبت أو مَللت يلهيني عن الانصراف حتى أعود إلى همتي أو تعود

إلى فنعود إلى القراءة.

وكنا في جلساتنا نتذاكر فيما كتبناه، يعرض عليّ ما كتبه، وأعرض عليه ما كتبت، ويستمع كل منا إلى ملاحظات صاحبه، ما شعر أحدنا في لحظة من اللحظات بتعالٍ أو استعلاء، بل كانت تلك الجلسات وتلك المذاكرات من أحلى ما اجتمعنا عليه **واستمتعنا** به، ولعل ذلك كان شيئًا مما ورثناه كلانا عن أبوينا الشيخين المجمعيّين، فلقد أورثانا حلاوة الصحبة وسرّ الألفة بين الزملاء والأصدقاء، وأورثانا حبّ الناس كما أورثانا حبّ الله وحبّ العربية.

ولقد كانت العربية من أكبر هموم أخي عاصم وطالما بثّ إليّ الشكوى وأظهر التألم مما وصلت إليه حال اللغة في المجتمع عامة وفي المدارس والجامعات خاصة.

لقد كنا نرى عاصم وأنا أن أصدق أنواع الوطنية أن يتقن المرء اختصاصه لينفع به مجتمعه، وكنا نرى أن نشر الوعي اللغوي رسالة مقدّسة، ونرى أن **العربية في أشدّ الحاجة إلى النُّزر من أبنائها والعاملين على تعزيز مكانتها، ولطالما تساءلنا أنموت قبل أن نرى العربية** ترفل من جديد فيما كانت ترفل فيه قديمًا من حلل حسدها عليها الدهر حتى بليت جدّتها وغاضت نضارتها؟ إنه الحلم الذي طالما تمنينا أن يصبح حقيقة.. **وليت ذلك يكون.**

أخي عاصم.. لقد سبقتني إلى رحمة ربك كما سبقتني قبلُ إلى كلّ مَكْرمة، وليس لي إلاّ أن أقول لك اليوم ما قاله أستاذي الشاعر أنور العطّار يوم ودّع عالم العربية الأستاذ سليم الجندي:

نَمْ غيرَ باكٍ على الفُصْحى وشيعتها فاللهُ حرْزٌ لها والآيُ والسَّوَر

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الفرسان الثلاثة

أُطلق هذا اللّقبُ المميز على الدكتور مازن المبارك – حفظه الله – وعلى الدكتور عبد الكريم الأشتر، والأستاذ عاصم البيطار من أيام الصداقة الجامعية.

وقد سجل الدكتور مازن المبارك بمداد قلبه نبض الحياة التي عاشها مع الأخوين الكريمين، وأبرز لنا السيرة العطرة التي أنتجت الإخلاص والنفع لهذه الأمّة. فقد ذكر بعض الأحاديث الموجزة عن لقاء الفرسان الثلاثة، حين قال:

الكلام على من أحب، والكلام على من أكره، موضوعان أقرّ من الحديث فيهما؛ لأني لا أطيق حمل ما يستوجبان. إن الحديث فيهما حديث ثقيل على النفس، يحاصرها بمشاعر الحب أو الكره من كل جانب.

وما استجبت إلى رغبة الكتابة في أحدهما طوال حياتي إلا مجبرًا مضطرًا؛ لأنني حين أتحدث فإنما أتحدث بلساني، وأما حديثي في الحب أو في الكره فليس للساني مكان فيه.. إن القلب هو لسان الحب وترجمان المشاعر وحبل المودّات. وإني لأخشى آن أتكلم وأتكلم فلا يكون كلامي إلا تعبيرًا عن العجز عن الوفاء بحق من أتحدث عنه![1]

لقد عرفت الدكتور عبد الكريم الأشتر منذ نيّف وستين سنة، حين اجتمعنا أمام باب المعهد العالي للمعلمين في المبنى القديم لجامعة دمشق مع نفر من المتقدّمين إلى المعهد، وكان

(١) أُعدت هذه الكلمة للترحيب بالدكتور عبد الكريم الأشتر بعد انتخابه عضو شرف في المجمع، ولكن حال دون إلقائها انتقال الدكتور الأشتر إلى جوار ربه.

بينهم صديقنا الأستاذ عاصم البيطار، وارتبطت قلوبنا منذ تلك الساعة بعقد صداقة استمرّت استمرار حياتنا، وعرَفنا قسم اللغة العربية في تلك الأيام بالفرسان الثلاثة. أربع سنوات كانت تجمعنا فيها قبل الظهر كلية الآداب، ويجمعنا بعد الظهر المعهد العالي للمعلمين، لم يغيّر واحد منا مقعده بجوار زميليه. وتجمعنا خارج الجامعة دار أحدنا لسَمَر أو طعامٍ أو درس ومذاكرة أو لذلك كلّه، لا ينفرط عقدنا إلا إذا سافر أحدنا ولم نسافر معه، وما أكثر ما كانت سياحتنا مشتركة داخل القطر وخارجه.

ولو كانت أشجار غوطة دمشق أو بساتين الميدان القديمة تتحدث لتحدثت عن الثلاثة الشبان الذين كانوا يقضون الساعات الطويلة كل يومٍ دارسين قارئين ومتنزّهين، ولو تحدثت قرى ريف دمشق ومتنزهات مصايفها لتحدثت عن رحلات وأسفار وجلسات وأسمار، ولردّدت صدى أصوات أولئك الشبان الثلاثة يلقون الشعر أو ينشدونه، ويقرؤون النصوص أو يعربونها، أو يحلّلون ويعلقون وكانت لكل منهم خصوصية لا يقتحمها عليه أحد منا ولا يمسّها، ويعرف جوّه فلا يعكّره عليه، وكانت تجمعنا رغَباتٌ كثيرةٌ مشتركة فلا يكون أحدٌ أسعدَ منّا حين نغتنم من الوقت ما نقضيه معًا لتحقيق تلك الرغبات سواء أكانت في سياحة داخل القطر أو خارجه، أو في قضاء يوم في الغوطة، أو جلسة ساعة على قراءة فصول من كتاب أو قصائد من ديوان أو كانت في جلسة على طعام. لقد جمعت بيننا أخوّة وصداقة ومحبّة، ولحُمَتْنا صلة حميمة وغَيْرةٌ صادقة على اللغة العربية والثقافة والتراث.

ولولا أني أخشى أن يطغى القلم بطغيان الذكريات لتركت الحديث يجرّني إلى صور عجيبة حبيبة! ولكن مسؤولية الحديث الرسمي عن الزميل المجمعي تدفعني إلى تغيير مسار الحديث إلى اتجاه آخر.

عاصم البيطار... وحِوار الأيام الأخيرة

الدكتور محمود الرّبداوي

يَحارُ المرء وتضطرب الأفكار في ذهنه عندما يداهمه نبأُ وفاة أحد أصدقائه أو معارفه، وهذه حيرة تملكت المفكرين والفلاسفة والشعراء والعلماء منذ بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا، فمنذ أن كانت الحياة كان يعقبها الموتُ، نسب الجاهلون والجاهليون الموت إلى الدهر فقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] وتابعهم أناس قالوا بمقولتهم هذه فكان «الدهريون»، وكان من المفكرين أبو العلاء المعري سيّد الشعراء المتحدثين عن الموت، فصاح في وجه الموت قائلًا:

يا دهرُ، يا منجزَ إيعاده ... ومُخلفَ المأمولِ من وعده

أيُّ جديدٍ لك لم تُبتله ... وأيُّ أقرانك لم تُرْده؟!

أرى ذوي الفضل وأضدادهم ... يجمعهم سيلُك في مَدّه

أضحى الذي أُجّل في سنّه ... مَثَلَ الذي عُوجلَ في مهده

ولا يبالي الميتُ في قبره ... بذمّه شُيّع أم حمده

ومجدُه أفعالُه، لا الذي ... مَنْ قبله كان ولا بعده

أفضَلُ ما في النفس يغتالها ... فتستعيذ الله من جنده

وريبُ ظمآنَ إلى مورد ... والموت - لو يعلم - في ورده

سَـــلِّمْ إلى الله فكـــلُّ الـــذي سرّك أو ســـاءك مَـــنْ عنـــده

أرأيت كيف بدأ هذا الفيلسوف الشاعر دهريا ساخطًا على الدهر، وانتهى مسلِّمًا يُسلِّم بقضاء الله وقدره؟ يسلم بحكمة الله، فواهب الحياة هو الذي يستردها بالموت، ولذلك جاءت القاعدة القرآنية ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وصدقت المقولة المشتقة من قانون الحياة والموت: (أرحامٌ تدفعُ، وقبورٌ تبلعُ)، وما بين تجميع الذرات وتكوين الخلايا في الرحم، ونثرها وفنائها في القبر حياة وُصفت بأنها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وهذا (التكاثر) الذي يلهينا - نحن بني البشر - حتى (نزور المقابر).

أشعر وأنا أكتب هذه الكلمات الآن القلم جنح بي إلى الحديث عن فلسفة الموت، وولج بي مواقع هي أقربُ إلى موعظة الموت لنا نحن الأحياء، ولكن ما إلى هذا قصدت عندما فكرت أن أكتب هذه الكلمات؛ فكرت أن أكتب كلمة قصيرة أجسّد فيها العواطف الحزينة التي تصطرع في نفسي عندما بلغني نبأ وفاة صديقي العزيز عاصم البيطار، كنت أفكر في أن أكتب كلمات تعبّر عن منزلته في نفسي، وعما تركه رحيلُه المفاجئ من أثر حرك الكامنَ من مشاعري التي تراكمت خلال سنين عديدة في الزمن الذي قضيناه رفاقَ علمٍ وتعليم في الوطن وفي المغترب، ولكن غلبت عليّ طبيعة معلم المهنة الأدبية، فتركتُ لقلمي يجنح بي إلى الاستشهاد بشعر أبي العلاء وبآي من الذكر الحكيم، ولكن شفيعي فيها أنها تدخل في صميم الفكرة التي أرغب الكتابة فيها.

أكتب هذه الكلمات عن الموت ورائحةُ الموت الجماعي تهبُّ علينا من الغرب في فلسطين، وتهب علينا من الشرق في العراق، وإن شئت فإنك تستطيع أن ترى هبوب

رياح الموت وعواصف الفناء في كل بقعة من الخريطة الإسلامية، ولكن أحاسيس الإنسان العربي وشريكه المسلم في المأساة تبلدت من تواتر رؤية الموت الجماعي الذي يقدّم بالجملة في بلاد (الشرق الأوسط الكبير)، لقد سكتت الجماهير العربية عن البكاء على هذا الموت الجماعي، واكتفت بدور المتفرج الذي لا يملك من التعامل مع المأساة إلا أن يقول: (كفاية)، ولكن موتَ الأقربين منا المحببين إلى نفوسنا يظل له طعم مختلف عن طعم كل موت، يموت أحبابنا، وتذهب أجسادهم إلى التراب الذي خلقت منه، ولكن عبق أخلاقهم وعبير سجاياهم يظل يتفاوح ملءَ الزمان وملءَ المكان، وقد خلف لنا التاريخ أكثر من شاهد من هذا القبيل.

زرت عاصمًا قبل وفاته بأيام، فتحامل على نفسه ووقف يحاورني، بروحه العذبة، وخلقه السمح، ويقول لي: إن الذين يعودونني في مرضي يحدثونني عن المرض والدواء والعمليات الجراحية فيزيدونني ألمًا فوق ألمي، فتعال يا محمود نتحدث عن الأدب واللغة العربية، فقلت له: أشتغل في هذه الأيام بكتاب عن (التناصّ والانزياح في فكر أبي تمام)، فنظر إليّ متعجبًا مستغربًا وقال: أما شبعت من الحديث عن هذا (الحوراني) الجاسمي؟! دعك من عصبية الإقليم، فأبو تمامك هذا كان يترفع عن العصبية الإقليمية، أما سمعته يقول:

بالشام أهلي، وبغدادُ الهوى، وأنا ... بالرقتين، وبالفُسطاط إخواني

خليفة الخضر، مَنْ يرَبَعْ على وطنٍ ... في بلدةٍ فظهور العيس أوطاني؟

فقلت له: ما قصدت بكتابتي عن (التناص والانزياح في فكر أبي تمام) عصبيةً لأبي تمام، وإنما أردت أن أقدم لإخواني المفتونين بالحداثة ومصطلحاتها أنّ ما يسمونه

(التناص) و (الانزياح) في الفكر النقدي الحديث بضاعة قديمة، ولما قرأت في عينيه الحماس للمناقشة، وهو على فراش المرض، يخلط جد العلم بهزل النكتة، وهذه سجيته فيه؛ فقلت له: إنني الآن أعكف على تأليف كتاب جعلت له عنوانًا غريبًا، قال: ما هو؟ قلت: عنوانه (ذهب الذين أحبُّهم)، قال: هذا شطر بيت من دالية (عمرو بن معد يكرب الزبيدي)، فقلت له: أجل، ولكنني اخترت هذا الشطر عنوانًا لكتاب أظنه تراجم لأناسٍ عاصرتهم في مواقع مختلفة من مسرح الحياة علموني فأحببتهم؛ كأمجد الطرابلسي، وسعيد الأفغاني، وشفيق جبري، وشكري فيصل، وصبحي الصالح، وعمر فرُّوخ، وعبد الهادي هاشم... وغيرهم كثيرون، ذهبوا كلهم من جوارنا إلى جوار ربهم، فلو سكتُّ أنا وأمثالي ممَنَ الذي تتلمذوا على علمهم، وعن ترجمتهم؛ لنسَيهم الجيل القادم، وَللجيل الذي بعده أشدُّ نسيانًا لهم، فمن الوفاء أن نذكر محاسن موتانا وفضلهم لا على جيلنا فحسب، وإنما على إسهامهم لما قدّموه للحضارة الإنسانية والفكر المبدع، فابتسم عاصم، وقال بدعابته وخفّة ظله: (لا تنسانا معهم يا دكتور) فقلت له: (بعد عمر طويل إن شاء الله) ولكن هذا العمر الذي زحف نحو الثمانين لم يمهله الموت حتى يتمها!

عاصم البيطار كنز من المعرفة، وذخيرة من اللغة وقوانينها، خدم العربية خدمة جلّى، كان شعاره في تقديم العربية أن بسّطوا هذه اللغة للناس، فهي يسيرة ليّنة، ولا تأخذوا بأقوال خصوم العربية الذين قدّموها وكأنها صعبة مستعصية على الفهم، أصعب علوم العربية الصرف، يستثقله الطلاب في كل مراحل التعليم، ولكنّ عاصمًا قدّمه لطلابه مادة طيّعة مستساغة، أذكر أنني عندما كنت رئيسًا لقسم اللغة العربية

اضطررت لتشعيب مقرر الصرف إلى شعبتين متساويتي العدد: أعطيت واحدة لعاصم، وأعطيت الثانية لأستاذ لا أذكر اسمه، فكنت إذا مررت أمام القاعتين وجدت قاعة عاصم غاصة بالطلاب، والوقوف منهم أكثر من الجلوس، على حين كان الطلاب في القاعة الثانية لا يكادون يملؤون نصف القاعة! فسبحان مقسم الحظوظ! ووراء كل حظ سبب...

رافقت عاصم البيطار ست عشْرة سنة؛ وهي سنوات تدريسه في جامعة دمشق، وقد تخللها أحداث كثيرة، بعضها ما يحدث بين الأستاذ وطلابه؛ طالب يطمع بأن ينجح بجهود كليلة، ومقدرة لغوية ضئيلة، وأستاذ حريص على أن ينال الطالب قسطًا من تخصُّصه بجعله أهلًا لنقله إلى جيل لاحق، ويُحَرج المسؤول الإداري - مثلي- بين الطالب وأستاذه، وكلاهما حبيبٌ إلى نفسي، ولكن يتغلب الأستاذ عاصم لأنه بجانب الحق، والحق عنده نصرة اللغة العربية.

ورافقته في بلد الاغتراب ما يزيد عن عشْر سنوات في المملكة العربية السعودية، في مغتَربه الثالث، زميلًا في قسم اللغة العربية، حميد السيرة بين الأساتذة والطلاب، وأغلب الأساتذة في القسم كانوا طلابه في سالفات الأيام، في مغتربيه الأول والثاني، كانوا طلابه في (دار الحديث) التي أسسها والده في الطائف، وكان (الدكاترة) يُكنُّون له كل مودة واحترام، ويعلمون أنه ليس من حملة هذا اللقب، ولكنه في علمه يفوق من يحملونه، الذين لا يرتقون إلى مستوى طلاب طلابه، ولم يكن يعبأ بأن فاته هذا اللقب ما دام في حصيلته العلمية أضعافُ ما يسميهم الناس في عرف الوظيفة (المُدكترين).

ورافقته في العقد الأخير من القرن الماضي زميلًا في مجلة (الفيصل) أدفع إليه

القضايا اللغوية، ويدفع إليّ القضايا الأدبية، وشهدتُ المجلة برعاية أمينَي عام مركز الملك فيصل الدكتور زيد الحسن والدكتور يحيى الجنيد، والأستاذ الكويليت أيام الزهو والازدهار فيها، وهي تتابع مسيرتها الموفقة إلى يوم الناس هذا.

كنت أريد أن أفصّل القول في ما تركه الأستاذ عاصم من مؤلفات، وفي مكتبتي أكثرها، وفي الحديث عن منهجه في التدريس الثانوي والجامعي، وعن أسلوبه الشائق في حلقاته الأدبية التي سجلها مع ثلة من كبار الأدباء والنقاد، فما زالت تُعرَض في القنوات الفضائية في أكثر دول الخليج بين الفينة والفينة، ولكن تركتُ لغيري أن ينهض بمثل هذا، وحسبي أن أكتب شيئاً لم يكتبه غيري، وإن كنتُ أشير إلى فجوة في تاريخه الفكري ستظل شاغرة؛ وهي ذكرياته عندما كان يرافق والده الشيخ محمد بهجة البيطار في حضرة الملك عبد العزيز بن سعود، فله مجموعة من الذكريات طيبة، سجل له تلفزيون المملكة العربية السعودية جانبًا منها، وسجلت له (دارة الملك عبد العزيز) جانبًا آخر ما زال محفوظًا في وثائقها، ولو قدّر لها أن ترى النور لأبصر الناس معلوماتٍ ثمينةً وسمينة باح بها (شاهد العصر) عاصم البيطار، وأُهيب بالمشرفين على دارة الملك عبد العزيز أن ينشروا تلك المحفوظات من الوثائق؛ لأنها ستنير جوانبَ مشرقةً من تاريخ الملك عبد العزيز ومن تاريخ المملكة العربية السعودية.

سأترك للجامعيين والمَجْمَعيين أن يُردموا الفجوات التي تجاوزتُ عنها في مقالتي العجلى هذه التي فرضتْها المناسبة الحزينة التي تركها رحيل الصديق العزيز عاصم البيطار، وحسبي أن أقول ما قاله المتنبي:

تبكي على الدنيا وما مَنْ مَعْشَرٍ جمعتْهُمُ الدُّنيا فلم يتفرّقوا

المـــوتُ آتٍ والنفـــوسُ نفـــائس والمـــستعزُّ بـــما لديـــه الأحمـــق

رحل الأستاذ عاصم وقد اقترب من الثمانين، وقبله بثلاثين سنة رحل والده الشيخ محمد بهجة البيطار وقد نيّف على الثمانين، عن حياة حافلة بالعلم والتقى والورع، وأورث ابنه عاصمًا عدّة مزايا: حبّ العربية التي كان الشيخ لا يتكلم إلا فصحاها، وورث الابن السعي لمواصلة ترسيخها وتبسيطها ونشرها في الدنيا، مع ثبات العقيدة وفهم جوهرها، وحسن إخراجها للناس، وورث منه أدب معاشرة الناس، واحترام الآخرين، مهما كانت أجناسهم وعروقهم، والتعامل معهم بالرفق والخلق السّمْح، وسار على خطا والده في امتهان التعليم والتربية، وتقديمها بلغة الواثق المخلص لمهنته، فارقنا يوم الجمعة في الرابع والعشرين من حزيران ٢٠٠٥، فلا يسعنا إلا أن نقول مع الشاعر:

وقـد فـارق النـاسُ الأحِبّـةَ قبلنـا وأعيـا دواءُ المـوت كـلّ طبيـب

(١) الأسبوع الأدبي، العدد ٩٦٥، ٩/ ٧/ ٢٠٠٥م، ص ١٩.

الأستاذ عاصم البيطار... وأمانة العلم والتعليم

د. محمد حسّان الطَّيّان[1]

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا رجُل عِلْمٍ فذٍّ، صان أمانة العلم، وحمل راية العربية، وجاهد دونها، وعلم أجيالًا من عشاقها، وارتحل في سبيلها، وهُدي إليها، ثم مات دونها، لم تَنْحَنِ له هامة، ولا هدأ له جانب، ولا انخفضت له راية، بل بقي واقفًا مجاهدًا لا يلين له جانب، ولا ينعطف له سبيل، حتى لقي ربه على جهاده وسعيه، فعسى أن يكتبه الله مع المجاهدين ويحشره مع المتقين، ويبعثه مع المحسنين، ويُعلي قدره يوم الدين، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾. [الشعراء: ٨٨ – ٨٩].

لا أعلم أحدًا من بين أساتذتنا كلهم على علو شأنهم ورفعة قدرهم أفاد طلبته كما أفادهم الأستاذ عاصم البيطار، ولا أعلم أحدًا منهم أحبه الطلبة كما أحبُّوا الأستاذ عاصم، ولا أعلم أحدًا أبعد أثرًا في الطلبة من الأستاذ عاصم؛ ذلك أنه كان معلمًا بحق، اكتملت لديه المعرفة النحوية، واستوت في ذهنه التحليلات الصرفية، وجمع

(١) مجلة الرأي العام، الخميس ٧/ ٧/ ٢٠٠٥م.

إليها صنوفًا من الخبرة التربوية، وضروبًا من الآداب السلوكية، وفنونًا من الأخلاق الاجتماعية، وزين ذلك كله بتاج من مكارم الأخلاق، فما شئت من علم في حلم، ومعرفة في فهم، وتربية في عزم، وأُنس في حب، وتعمق في فكاهة، ودراية في سماحة.

والعلم إن لم تكتنفْه شمائلٌ تُعْليه كان مطيّة الإخفاق
لا تحسَبَنّ العلمَ ينفعُ وحدَه ما لم يُتَوَّج ربُّه بخلاق

قابلْته منصرفًا من حضور مناقشة للدكتوراه في كلية الآداب بجامعة دمشق[1]، فسلمت سلام المشتاق لأستاذ باعدتْ بينه وبين تلامذته الأسفار، ثم قلت له: ما زلتُ أذكر يا سيدي أنك أكثر مَنْ درّس في قسم اللغة العربية نفعًا للطلبة وإفادة لهم، وبناءً لقاعدتهم النحوية، فما سرُّ ذلك؟ فأجاب: يا بني؛ لقد كنت في غابر أيامي مدرسًا للعربية في ثانويات دمشق، وعندما خُيّر لي أن أدرس النحو في الجامعة أخذت للأمر أهميته [أُهْبَتَه]، وأعددت له عُدته، واحتشدت له بكل ما أملك، فلم أدع مرجعًا للنحو إلا عُدت إليه، عاكفًا عليه، باحثًا فيه، وأخبرتُ والدي الشيخ بهجة البيطار - رحمه الله - فقال: يا بني؛ حَسَنًا صنعت، ولكن عليك قبل ذلك أن تصل إلى قلب الطالب، فإذا أحبك الطالب انتفع بك، وأفاد منك، وإلا أعرض عنك، ولم يُفدك علمُك شيئًا، اجعل علاقتك بطلبتك علاقة ودّ ومحبة، فإذا أفلحت في ذلك أوصلت إليهم ما تريد من معرفة، وإلا بقيتْ معرفتُك لنفسك، ابن مع الطالب جسرًا تعبر فيه إلى قلبه، وإذا ملكت قلبه أمكنك من عقله.

وكذا كان...، فالطلبة كل الطلبة كانوا يُجمعون على حبّ الأستاذ عاصم، وكانوا

(١) مناقشة الدكتوراه للطالب: أيمن الشوا في ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٠م.

يحضرون محاضرة الأستاذ عاصم، والطلبة كل الطلبة كانوا يفيدون من علم الأستاذ عاصم، والطلبة كلهم ينهلون من علم الأستاذ عاصم.

كنا نحضر محاضرة الأستاذ عاصم، فنجد فيها العلم والمتعة، والمعرفة والأنس، والفن والفكاهة، والنحو والأدب؛ ما أذكر أنه بدأ محاضرة من محاضراته كما يبدأ معظم الأساتذة محاضراتهم فيلجؤون إلى موضوع بحثهم دون مقدمات أو استهلالات.

محاضرة من محاضرات الأستاذ عاصم مطلعٌ يأخذ فيه بيد الطلبة إلى بحر النحو العميق، فإما أن يبتدئ ببيت شعر، أو آية كريمة، أو حديث شريف، أو قصة نادرة، أو خبر طريف، أو مثل مُعجب، أو قصيدة وافاه بها طالب من الطلاب، أو حَدَث كان له أثر في الناس والمجتمع، أو طرفة يحكيها، أو حكمة يرويها، أو حادثة جرت له في الجامعة، أو مع أحد من رجالات العلم الذين تطرب لذكرهم الأسماع، وتُشَدُّ لسيرتهم الألباب، ويحلو بحديثهم المكان والزمان، أو إعراب من الأعاريب، أو تحليل من التحليلات، ويأتي كل ذلك سهلًا ميسورًا، لا تكاد تجد فيه أيّ عنت أو صعوبة.

فما كان أحد في محاضرة شيخنا البيطار يشعر بملل أو يداخله الملال، وما كان أحد في محاضرة شيخنا البيطار ينصرف عنه بكلمة أو يتشاغل عنه بحديث، بل كان الجميع يستمعون وكأن على رؤوسهم الطيرَ، ويحدجونه بأبصارهم، وينصتون إليه بأسماعهم، ويحفّونه بقلوبهم.

أرأيت إلى الشاعر المُلْهَم ينشد وسط الجموع قصيدة عصماء والقلوب تهفو إليه من كل جانب؟ أرأيت إلى الخطيب المِصْقع يهدر بخطبة عصماء والجموع تحيط به من

كل جانب؟ أرأيت إلى الإمام الخاشع يؤمُّ جموع المصلّين يتلو آيات الرحمن يجهرها تحبيرًا والمؤتمُّون مأخوذون بما يرتل متابعون لما يتلو؟ كأني بالأستاذ عاصم كان كذلك، رحمه الله وأسبغ عليه شآبيب مغفرته.

كان – والله - سمحًا سهلًا، كأنما بينه وبين القلوب نَسَب، أو بينه وبين الحياة سَبَب، وإنما هو عيادة مريض وتُحفة **قادم، وواسطة عقد.**

فَتًى صيغ من ماء البشاشة وجهُه فألفاظُه جودٌ وأنفاسه مجدُ

ما أذكر أني تخلفت عن محاضرة من محاضراته، بل إني كنت ألحق به إلى كلية الشريعة فأستمع إلى محاضراته هناك، وانقضت السنة الأولى، ونجحت في مادته، وكنت الأول فيها على أقراني، ولكني لم أترك محاضراته أبدًا، ولم يكن يُحاضر إلا على طلبة السنة الأولى، فكنت تراني كلما سنحت لي الفرصة أنسلُّ بين طلبة السنة الأولى، فأقاسمهم متعة الحضور عند الشيخ عاصم البيطار، ومن هنا تعرفت إلى كثير من نجباء الطلبة في الدفعات التي تلت دفعتنا؛ من مثل الأستاذ الدكتور محمد الدالي، والأستاذ الدكتور عبد الكريم حسين، والأستاذ عمر ماردِيني، والأستاذ صالح السمر، وغيرهم ممن صار ملء السمع والبصر.

ولا زلت أذكر تلك المحاضرات التي كانت تبدأ بمناقضات شعرية يتزعمها طالبان من شعراء تلك الدفعة، لقب أولهما نفسه بالثعلب، ولقب **الآخر نفسه** بالعقرب، وعشنا بينهما زمنًا رغدًا صنعه شيخنا البيطار رحمه الله.

وكنت أختلف إلى مكتبه في القسم أسأله عن أشياء علنت لي، أو صعبت عليّ، أرجو منه بسط الكلام عليها، وكثيرًا ما كنت ألقى أستاذنا النّفّاخ هناك - وكانا في

مكتب واحد- فما أذكر أني سألته عن مسألة بحضور النّفّاخ إلا أحالها إلى النفاخ بأدب بالغ، وخُلق كريم نادر، ولم نكن آنذاك نجرؤ على سؤال النفاخ أو حتى الكلام معه، بل نكتفي بسماع محاضراته، ثم نذهب أن نلقاه، فكان لقاؤنا معه بمعيّة الأستاذ عاصم تمهيدًا لصحبته وملازمته التي امتدت نحوًا من خمسة عشر عامًا نهلنا من علمه ما شاء الله لنا أن ننهل، وأفدنا من معرفته ما شاء الله لنا أن نفيد، رحمهما الله، وبرد مضجعهما، وجزاهما عن العربية وأهلها خير الجزاء.

بقي أن أقول: إن شيخنا الأستاذ عاصمًا كان سليل بيت أقام فيه أهلوه للعلم دُولة، وللخلق والفضل والنبل أُمّة؛ فأبوه بهجة الشام وريحانتها الشيخ بهجة البيطار، وجدُّه علامة الشام ومؤرخها الشيخ عبد الرزاق البيطار، ولو رحتُ أعدِّد أعلام ذلك البيت من أساطين العلم وعُدوله لما وسعْتني هذه العُجالة، وإنما حسبي أن أشير إلى أن آل البيطار كانوا من أشهر بيوتات العلم في دمشق الشام، بل إن أثرهم قد امتد ليشمل مناطق كثيرة في عالمنا الإسلامي، وفي جده الشيخ عبد الرزاق البيطار يقول الشاعر:

أفديه عبدًا إلى الرزاق ذا شيمٍ ... تألفت من سناها غرة الزمن

وسيدًا من بني البيطار والدُه ... بدر الهدى حسنٌ ناهيك من حسن

وفيه وفي آبائه يصح قول الشاعر:

وما ذاك من خيرٍ أتوه فإنما ... توارثه آباءُ آبائهم قبلُ

وهل يُنبت الخطيّ إلا وشيجُه ... وتُغرَسُ إلّا في منابتها النخلُ

سعى بعدهم قومٌ لكي يدركوهمُ ... فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا

رحمه الله، وجزاه عن العربية وأهلها خير ما جزى عالمنا عن قومه ولغته.

عاصم بهجة البيطار

مسيرة نصف قرن

من العمل الدائب في محراب اللغة العربية المقدسة

د. محمد مروان مراد[1]

كان في الخامسة والسبعين من عمره، مديد القائمة، مَهيب الطلعة، بَشوش المحيا، حين اعتلى منصة مجمع اللغة العربية يوم الثاني عشر من كانون الثاني عام ٢٠٠٤ الماضي؛ ليحصل وسط تصفيق الجمهور الحاشد من الباحثين والمؤرخين شارة المجمع، ترصّع صدره، معلنةً انضمامه إلى أعضاء المجمع، وكان عاصم البيطار في اللحظة ذاتها يختزن في عقله وقلبه ذخيرة من ألق الفكر والعلم المفيد، ومن إشراقة اللغة وجزالة البيان، وكنت في الحضور مصغيًا تنقلني خواطري بين كلماته في رجال العالم الخالدين. وبين مسيرته الغنية بالعمل الدائب، والنشاط الكبير في خدمة اللغة العربية والنحو والبلاغة والبيان العربي الرفيع.

أساتذته أعلام اللغة والأدب: نشأ عاصم البيطار في أسرة علم وأدب وصلاح، جدّه الشيخ مدحت البيطار، ووالده علامة دمشق الشيخ محمد بهجة البيطار، وكان من العلماء الأجلاء في الأدب واللغة، ومن أكثر أعضاء مجمع اللغة العربية همة وحيوية، وقد ترعرع

(١) صحيفة تشرين، العدد (٩٣١٢)، الاثنين ١٩ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ص ٩.

في ظلال هذه الدوحة، يرتوي من ينبوع الفصحى، ويجني من ثمرات المعرفة اليانعة، **تلقى تعليمه** الابتدائي في مدرسة «**خالد بن الوليد**» في حي الميدان في دمشق، وكان من بين أساتذته فيها الشيخ زين العابدين التونسي المحقق والمؤلف، وقاسم القاسمي شقيق علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي، كما تتلمذ على يد الأديب الشاعر أمجد الطرابلسي، وفي المرحلة الثانوية **نال شهادة القسم الأول العلمي عام ١٩٤٧م، ثم حصل** على شهادة القسم الثاني الفلسفة، وتوج تحصيله بالإجازة في الآداب من قسم اللغة العربية، والإجازة في التربية والتعليم العليا عام **١٩٥٢**م، وحين تقدم للانتساب إلى دار المعلمين العليا قابل لجنة من ثمانية أعضاء اختبرته في كتاب: «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل، وناقشته في مسألة الوحي ونزول جبريل على الرسول الكريم (^)، **فنالت** أجوبته تقدير اللجنة، واجتاز الامتحان بنجاح مشهود.

عمل بعد تخرجه بالتعليم الثانوي في دمشق، ثم انتقل إلى قطر مفتشًا للغة العربية، ثم إلى السعودية ليدرس اللغة في كلية اللغة العربية، وانتدب بعد عودته عام ١٩٧٠م، لتدريس النحو والصرف في جامعة دمشق ولمدة سبعة عشر عامًا، وبعد تقاعده **طُلب** للعمل مجددًا للتدريس في جامعة الملك سعود في المملكة الشقيقة. وعمل في الفترة نفسها في تقويم البحوث الفكرية وتدقيقها لمجلة «**الفيصل**» **الثقافية**، ثم ليعود أخيرًا إلى دمشق مختتمًا بذلك مسيرة نصف قرن من الدأب والجد في التعليم والتأليف.

كتاب في النحو مقرر ٣٠ عامًا: احتل عاصم البيطار منبر التعليم في المدارس **والجامعات سنوات عديدة**، محاضرًا متصفًا **بالثقافة الواسعة والعلم الغزير** والباع الطويل في علوم اللغة العربية وآدابها، **وقبل ذلك بالأخلاق العالية والإنسانية الرفيعة، وقد شُغف**

طلابه بأسلوبه الشائق في التدريس الذي قرّب إلى أذهانهم القواعد والنحو، وحببهم باللغة العربية الفصحى، وظل كتابه في مادة النحو والصرف مقررًا على طلبة الجامعة لأكثر من ثلاثين عامًا، يعلمه الأساتذة بدون تعديل؛ لما يجدون فيه من سهولة العبارة وبساطة الأسلوب، ولا يزال طلابه – مدرّسو اللغة العربية اليوم- يذكرون ما تمتع به البيطار من دماثة الخلق، وروح الدعابة، والنكتة الحاضرة الممتزجة بالعلم الواسع، فكان الشاهد أو المثل حاضرًا ومرتجلًا، ومن صميم الواقع المحيط بالطلاب، ولا تزال أبهاء المدرج الأول بكلية الآداب تردد صدى صوته المميز، وكذلك صورته واقفًا مهيبًا يزود طلابه بما تختزنه اللغة العربية من بيان مشرق، وبلاغة رفيعة، وقوة تعبير متميزة، وكان يحضهم على الاهتمام بها وصونها من سهام الأعداء المسمومة التي تخطط لتشويهها، وبالتالي طمس هوية الأمة العربية.

عمل دائب في التحقيق والتأليف: أصدر عاصم البيطار مجموعة من مؤلفاته في اللغة والنحو، ومن بينها: «التسهيل» و «الدليل» و «المنهج الجديد»، وشارك مع آخرين في السعودية في تحقيق «شرح ابن عقيل على الألفية»، فصدر في ثلاثة أجزاء..، وكان البيطار معجبًا بكتاب «المفصل في النحو» للزمخشري، وشرحه لابن يعيش بأجزائه العشرة، فقام بتصنيف فهارس من «شرح المفصل» لابن يعيش، وصدر عن مجمع اللغة العربية، وله في التحقيق أيضًا: «الفضل المبين في علوم الحديث»، و«موعظة المؤمنين»...

عاصم البيطار، شكرًا: لم يحل المرض بين عاصم البيطار وبين مثابرته على العمل في التدريس لآخر فترة من حياته، وكان يتنقل بهمة ونشاط بين «مجمع النور» و «الموسوعة العربية»، ويعطيهما من دأبه ونور عينيه، وقبيل رحيله بشهر واحد تفضل علي – وبأريحية

عامرة- فدقق كتابي «من جواهر البيان العربي»، وقد تتبع صفحات الكتاب، ودققه كلمةً كلمةً، مُصوّبًا ما وجد من عثرات، وطوق عنقي بمقدمة جاءت آيةً في اللطف والمحبة، وفي اليوم الذي توجّهت إليه لأهديه نسخة مطبوعة من الكتاب...، كان قد التحق بالرفيق الأعلى، مودّعًا بعرفان طلابه ورفاق دربه، وتقدير أمته التي تكنُّ الفخر والاعتزاز لأبنائها العاملين الأوفياء، ومطوّقًا بدعاء القلب أن يجزيه الله تعالى خيرًا عن عمله المثمر، ويثيبه مغفرة ورضوانًا.

عاصم البيطار..
البسمة التي انطفأت

شوقي المعريِّ (١)

قد يكون اسم الأستاذ عاصم البيطار من أكثر الأسماء علوقًا بعقل الطلاب في كلية الشريعة وقسم اللغة العربية، هذا غير مواضع أخرى يتردد فيها هذا الاسم منذ سنوات بعيدة جدا، سواء الطلاب الذين تخرجوا من هاتين الكليتين أم الذين مازالوا على مقاعد الدراسة، ويبدو أنه سينطبق هذا على الذين سينتسبون إليها؛ لأن كتاب الأستاذ عاصم المقرر في مادة النحو والصرف هو الأول الذي يحمله الطالب، والذي يعتمده في كل السنوات وبعد تخرجه، وكلما أعوزته حاجة النحو؛ لأن هذا الكتاب يضم بين دفتيه معظم أبواب النحو والصرف التي سيعول عليها الطالب كثيرًا في تعلمه وتعليمه من بعد، فكأنه الأساس الذي سيبني عليه، وهذا الكتاب يعود بي وبكثيرين إلى سنوات زادت على الثلاثين، يومَ كان أُمليَّة جامعيَّة مقرّرة علينا في هذه المادة العلمية الأساسية في قسم اللغة العربية، وظل هكذا، وظل الزملاء الذين يدرّسون طلاب السنة الأولى في قسم اللغة العربية في حالة حرج، إنهم لا يريدون تغيير المقرر؛ لأنهم إما أن يأتوا بشيء يفوق ما في الكتاب، وإما أن يظل على حاله

(١) صحيفة البعث، الاثنين ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٥م.

بحروفه التي طبعت على الآلة الكاتبة، وبالحركات التي وُضعت بخط يد صاحبه، وكأنها علامة فارقة!! ويبدو أنهم آثروا الأمر الثاني؛ لأنهم - كما يقولون - **لا يقدرون** أن يزيدوا على العلم الذي في الكتاب كثيرًا، إلا سهولة العبارة وتبسيطها بما يتناسب ومستوى الطالب الذي يبحث عن المستوى السهل في العلم مع السرعة للوصول إلى مبتغاه وهو النجاح، ثم إنهم يتركون الكتاب احترامًا وتبجيلًا لصاحبه، فكأنه قرآن الكتاب النحوي الجامعي كما سمّي كتاب سيبويه قرآن النحو.

إن هذا من أهم الأسباب التي جعلت للأستاذ عاصم البيطار ذاك الصيت الطيب في العلم، هذا عدا عن الأخلاق التي يتخلق بها، والطريقة الممتعة في التدريس التي تميز بها دون غيره من أساتذتنا، والقصد منها تحبيب المادة النحوية وتقريبها إلى عقل الطالب؛ لأنها في عرف الكثيرين مادة جافة، فكان يعمل جاهدًا أن يقربها من أذهاننا **وأذهان من كان قبلنا ومن جاء بعدنا من الطلاب الذين لا يزالون يتذكرون روح** النكتة والدُّعابة التي لم تفارق روحه، وتمتزج بالعلم الجمّ، فتكون الضحكة سبيلًا إلى فهم القاعدة النحوية؛ لأن المثال أو الشاهد حاضر ارتجالي بديهي من صميم الواقع الذي يحيط بالطالب، وما زال هذا كله يتردد صداه في المدرج الأول الذي حَضَنَه، وملأه هو بصوته الذي تميز وجسده الذي كان يعلو المكان واقفاً دائمًا حاضرًا عالمًا، **وكم من مرة حاول**نا تقليده عسانا نصل إلى درجة من درجات التفوق التي ارتقاها **أستاذًا ناجحًا**.

لقد احتلّ الأستاذ عاصم البيطار مهنة التدريس سنوات طويلة محاضرًا بشهادة ليست العليا التي بحث عنها الكثيرون، لكن بعلمٍ سامٍ مرتفع شامخ، منعته ظروف

كثيرة من متابعة دراساته، لكن ما حصّله يعادل شهادات كثيرة تُمنَح في هذا الزمن.

وقد لا يعرف كثيرون - على الأقل الطلاب- أن عاصمًا البيطار هو ابن العلامة بهجة البيطار الذي كان له دور كبير في إنشاء وزارة التربية في السعودية، فقد لازم الابن أباه في رحلته الأولى، فحمل عنه علمًا لا يحتاج إلى منحه شهادة، **وأخذ عن والده** علمًا جما غزيرًا لم يبخل به على طلابه. **ومن أهم الأماكن التي حلّ فيها للعمل، وكان** أهمها مجلة «**الفيصل**» السعودية، ثم استقباله عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق وهو يدلف إلى الخامسة والسبعين من العمر، فقد تأخر كغيره، فما نفع إلا القليل، **وما أفاد** إلا بالقدر الذي كان العمر يسمح له به، والصحة التي أعاقته كثيرًا؛ لأن المرض بدا يظهر على وجهه وجسده، فحاله أصفر، وما عاد ذاك الوجه الذي عهدناه بابتسامته، وشعره الكث الذي بدأ يتساقط أبيض، وبدأ جسمه ينحل ويضعف، وهو الجسم الهرم الكبير، بدأ ينهدّ شيئًا فشيئًا، ويذوب كما لو أن حتّ السنوات ازدادت عليه، وتثاقلت كثيرًا، وتكاتفت لتجعله طريح الفراش، فَسَرَت فيه عوارض المرض مجتمعة متكاثفة، وقدرت أن تطفئ بسمته، وتقتل جسده، لكن لا تستطيع أن تمحو كل شيء، فما زال اسمه في العلم الذي تركه لنا، فهما - **اسمه والنحو** - صِنْوان لا يفترقان.

في الدِّفاع عَنِ الفُصْحى

الشاعر محسن بن حمد الخرابة[1]

في يوم الخميس (١٤٢٦/٥/١٦هـ) (٢٠٠٥/٦/٢٣م) هوى عَلَمٌ من أعلام الأمة المتميزين في أحضان الموت، إنه الأستاذ العلامة عضو المجمع العلمي العربي السوري والأستاذ الجامعي عاصم البيطار، الذي سلخ نحوَ نصف قرن من حياته في تعليم العربية وعلومها؛ من نحو وصرف وأدب في جامعات سورية وقطر والسعودية، فقد اختارته يد المنون بعد أن قارب الثمانين من العمر، وقد بكته مدينة دمشق بكاءً حارا، وشيعته إلى مثواه الأخير في جنازة مهيبة.

كان الأستاذ البيطار زميلًا لنا في العمل في مجلة الفيصل، وقد حزّنا على فراقه حزنًا شديدًا، وفُجعنا بخبر وفاته، فكانت هذه القصيدة تحمل في غضونها مشاعرنا الصادقة - نحن أسرةَ مجلة الفيصل - تجاه الفقيد:

الدمعُ جارٍ من الآماق ينحدرُ ... والحزن جرّح قلبًا كاد ينفطرُ

مَنْ هول فاجعة حلّت كصاعقة ... على الرؤوس فكاد الرأس ينفجرُ

حزنًا على شيخنا البيطار وآلَهفي ... لقد هوى مُشرقًا من أُفقه القمَرُ

حزنًا على العالم العلامة العلَم ... الفاضل الشهم قد أودى به القَدَرُ

---

(١) مجلة المجلة وجريدة الأسبوع الأدبي، الرياض ١٤٢٦/٥/٢٠هـ.

قد كان والله بحرًا فائضًا لجبًا ... في العلم والحلم، والأفضال تستتر

قد كان والله نهرًا سائغًا عذبًا ... من الفضائل، والأخلاق تنهمر

كأنما صاغه الرحمن من خُلُق ... فكان كتلةَ أخلاق، بها خَفَرُ

كأنما روحُه روحُ الشباب على ... رَغْم السنين وعمْرُ هذه الكبَرُ

ما زلت أذكر أيامًا له سلفت ... بالحب واللطف والأفراح تزدهرُ

ما زلت أذكر رحْلات لنا معه ... في البَرّ ممتعةً كأنها خبَرُ

أخبار أعماله الجُلّى ستُذْكَر في ... مجلة الفيصل الغراء تنتشرُ

قد كان والله للإخوان مَفزَعهم ... إذا ألمّ بهم مستكره خطرُ

قد كان ملجأنا في كلّ نائبة ... وفي الطُّروس إذا حلّت لنا وَزَرُ

من مجْتَدٍ طيب طابت أُرومته ... وبيت علمٍ وفضْل جدُّهم عُمَرُ

غذّاه والده علمًا ومعرفةً ... منذ الطفولة حتى أينع الثمرُ

وصار علّامةً تصغي الرؤوس له ... إذا تكلم يرنو نحوه البصرُ

وظل فارس مَيْدانٍ بلا شبه ... في النحو والصرف، والآدابُ مقتدرُ

في جلّق الشام أعوامًا يحاضر في ... طلابها وبجامعاتها نَمَرُ

وفي السعودية الفضلى له ذكرٌ ... على منابرها وقبلها قَطَرُ

وفي الدفاع عن الفصحى يُرى أسدًا ... ما شانه في الورى جُبْن ولا خَوَرُ

تَزيُنه اللغة الفصحى فيطربنا ... كلامُهُ العذبُ والأمثالُ والعبرُ

يسوق أعذب أشعار وموعظةً ... وحكمةً ما رواها قبله بشرُ

في كل مسألة يروي لنا قصصًا ... تظل في قلبنا كأنها أثرُ

وكـــانَ يُتْحفُنـــا في كـــل مـــسألة ... مـــن الطرائـــف ممـــا فيـــه معتَـــبَرُ

وعـــن أحاديثـــه حـــدث ولا حـــرجٌ ... اللولـــو منتشـــرٌ مـــن فيـــه والـــدُّرَرُ

نـــدعو لـــك الله يـــا أســـتاذنا أبـــدًا ... أنْ يَنـــزِل الوابـــلُ الـــمِدْرار والمطـــرُ

عـــلى ضريحكـــمُ حتـــى ينقّيَـــه ... مـــن الخطايـــا وتنـــأى عـــنكم ســـقَرُ

وأنْ تُنـــزِل رحمـــات الإلـــه عـــلى ... قبرٍ حـوى جسمكم أو ينبتَ الشجرُ

وأن يعمّكـــــــمُ ربي برحمتـــــــه ... وبالرضـا منـه لا خـوفٌ ولا حـذرُ

وأنْ تُفَـــتَح أبـــواب الجنـــان لكـــم ... عـلى مصاريعها أهـلًا بمـن ظفـروا

مـع النبيـين في الفـردوس منـزلكم ... أنـتم ومـن جاهـدوا في الله أو صـبروا

الدكتور عاصم البيطار وجسر المحبّة

رزان سلّوم[١]

هناك نَدْرَةٌ من البشر يخلقهم الله ليكونوا واحةً خضراء في صحراء مقفرة، هم الخير كلُّه في حياتهم وبعد وفاتهم، نبعٌ لا ينضب، وعطاءٌ لا يجفُّ، هم في علمهم وعملهم كمئذنة الجامع، وعلماء عصرهم من حولهم كبيوت القرية. الدكتور عاصم بيطار فاق علماء عصره وزمانه، هو للعربية إمام، وفي عصره من أبرز الأعلام، له في طروس العلم أقلام، صان أمانة العلم وحمل راية العربية وجاهد دونها بسنوات راكضة من عمر راكض قضاه في حب العلم وأهله، وعلّم علمُه البلاد والعباد، لأنه هجر في طلب العلم الرقاد، حتى ترأس وساد، لو لقيه سيبويه لقال: معكم يا سيدي العلم يُستفاد، خُلُقٌ أرقُّ من صَبا بردى، وعلمٌ ذاخرٌ اليومَ وغدا، ونبراس للعربية على طول المدى، ملتفٌ بعباءة الوقار، اتخذ من العلم أدفأ دثار، ولطالما علمنا طلب العلم باستمرار، وأخذه من أهله بأمانة وإصرار، علمنا أنّ جسر المحبة هو ذاك الجسر الذي تعبر منه إلى قلب طالب العلم، فكانت كلماته نبراسًا لكل معلم، (فإذا ما تمكنت من قلبه أمكنك من عقله)، بسمته على محياه، صادق في مسعاه، إخلاصه في سره ونجواه.

(١) باحثة وأديبة سوريّة.

الكلمات التي أُلقيت

في حَفْل تأبين فقيد المجمع

الأستاذ عاصم البيطار

إنْ أكرموكَ فبعضُ ما يكفي العُلى وَلأنتَ من كلم الرثاء كريمُها

وبلغْت شأو الخالدين بسُمعة حفت بها الدنيا ودام نعيمُها

اعترافًا بالوفاء والعرفان لعالم العربيّة الأستاذ عاصم بهجة البيطار، الذي وجّه جهوده لخدمة لغة القرآن، تدريسًا وتأليفًا، أقام مجمع اللغة العربيّة وأصدقاء الفقيد وأسرته حفل تأبين له، مساء يوم الأربعاء ١٨ شعبان ١٩٢٦هـ / ٢١ أيلول ٢٠٠٥م، في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بدمشق، وشارك في تأبين الفقيد الراحل:

- الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، رئيس مجمع اللغة العربية
- الأستاذ الدكتور علي أبو زيد، وكيل جامعة دمشق للشؤون الإدارية
- الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر، عن أصدقاء الفقيد
- الأستاذ الدكتور أيمن الشوا، عن طلاب الفقيد
- الأستاذة المهندسة ندى عاصم البيطار، نجلة الفقيد

كلمة
الأستاذ الدكتور شاكر الفحام

السادة المجمعيون الأعزة – السادة العلماء الأفاضل – السادة الحضور الكرام

أطيب التحية وأوفى الشكر لتفضُّلكم بتلبية الدعوة لحفل تأبين الأستاذ الفقيد عاصم البيطار، عليه رضوان الله ورحمته، يُقيمه مجمع اللغة العربية عرفانًا بفضله، ووفاءً بما قام به وقدمه في حياته.

نشأ الأستاذ عاصم في بيئة علمية توارثت العلم، فقد أشار، رحمه الله، في مطلع سيرته الذاتية إلى أسرته فقال: ((ولدتُ في دمشق عام ١٩٢٧م، وكنتُ أستمع من والدي [الشيخ محمد بهجة البيطار] رواية عن جده لأمه الشيخ عبد الرزاق البيطار، وجده لأبيه الشيخ عبد الغني البيطار أن أسرتنا من أصول جزائرية، وكانت تقيم في مدينة ((بليدة)) التي تبعد عن مدينة الجزائر العاصمة أقل من خمسين كيلًا، وأن أحد أفرادها كان يعمل في التجارة، وكان نشاطه التجاري يمتد إلى البلاد العربية في الشرق والغرب، وفي إحدى زياراته إلى دمشق طاب له المقام فيها، وكان ذلك منذ أكثرَ من ثلاثة قرون، واختار حيّ الميدان، جنوبي مدينة دمشق مكانًا لسكناه، وتزوج وأنجب، ولم يُعْرف من أتى بعده وطنًا إلا دمشق)).

ثم يتابع متحدثًا عن أجداده فيقول: ((وليس في المراجع ما يُشير إلى ترجمة واضحة

للأجداد الذين سبقوا الشيخ حسن بن إبراهيم بن حسن البيطار (١٢٠٦ – ١٢٧٢هـ)[(١)]، وقد رزقه الله من الأولاد الذكور علماء أعلامًا، سار ذكرهم في البلاد، وهم الشيخ محمد بن حسن أمين الفتوى في بلاد الشام، والشيخ عبد الرزاق بن حسن العالم والمؤرخ الشهير وصاحبُ كتاب ((حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر))[(٢)]، والشيخ عبد الغني بن حسن الملقب بالشافعي الصغير، والشيخ سليم بن حسن الذي كان يلقب بالفرضي لبراعته في علم الفرائض، وقد خلّف هؤلاء الأعلام كثيرًا من الأولاد والأحفاد اشتهر منهم علماءُ وأدباء ورجال سياسة ومعلمون تجار)).

ثم انتقل إلى الحديث عن نشأته فقال: ((كانت مدرستي الأولى في التربية والتعليم هي البيت الذي كان والدي يحرصُ على أن يبنيه على هَدْيِ من تعاليم الإسلام ولغة القرآن، فقد كان يحدثنا منذ نعومة الأظفار بالفصحى، وأكاد أقول: كان لا يُحسن الحديث بالعامية)).

فالأستاذ عاصم نشأ في كنف أبيه الشيخ الجليل الأستاذ محمد بهجة البيطار (١٨٩٤ – ١٩٧٦م) ابن الشيخ محمد بهاء الدين بن عبد الغني بن حسن. لقد كان الأستاذ محمد بهجة البيطار من العلماء الأعلام الذين بلغوا في العلم منزلة رفيعة،

---

(١) له ترجمة في كتاب الأعلام للزركلي (٢/ ١٧٨)، وقد جعل وفاته سنة ١٢٧٣هـ.

(٢) طبع كتاب ((حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر)) في مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٦١ – ١٩٦٣م) في ثلاثة أجزاء، بتحقيق الأستاذ الجليل محمد بهجة البيطار سبط المؤلف، مجلة المجمع، مج ٥١ (ج٤/ ص٨٠٣)، وللشيخ عبد الرزاق البيطار عدة تراجم سردها الأستاذ الزركلي في كتاب الأعلام (٣/ ٣٥١).

وكانت حياته حافلة بالوظائف والمناصب التي تولاها في دمشق وفي السعودية، وترك آثارًا طيبة في كل ما أُسند إليه من أعمال، إلى جانب ما أغنى به المكتبة العربية من مؤلّفات وتحقيقات ومقالات[(١)].

ويكفي أن أشير إلى أن الشيخ بهجة انُتخب عضوًا عاملًا في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق) في سنة ١٩٢٣م، وأمضى في عضويته ثلاثًا وخمسين سنة (١٩٢٣ – ١٩٧٦م)، وكان كما قال الأستاذ عدنان الخطيب ((من أكثر أعضاء مجمع دمشق حيوية ونشاطًا، شارك زملاءه في إلقاء المحاضرات العامة، والأبحاث المعمقة، وفي تحرير مجلة المجمع، والتعريف على صفحاتها بالكتب والمطبوعات التي تدخل موضوعاتُها في اهتماماته الشخصية، وشغل في مجمع دمشق منذ سنة ١٩٥٣م عضوية لجنة المطبوعات، واستمر على القيام بمهامها في الإشراف على مجلة المجمع ومطبوعاته حتى أقعده المرض قبل انتقاله إلى دار الخلود بأسابيع معدودات))[(٢)].

وقد أفاد الأستاذ عاصم من هذا الجو الذي كان يحفّه بالحنان، ويمدّه بالمعرفة في دراساته الابتدائية والثانوية، وحصل على الشهادة الثانوية (القسم الثاني/فرع الفلسفة) عام ١٩٤٧، بعد غياب سنتين كان فيهما مرافقًا لوالده في المملكة العربية السعودية.

ثم نال الإجازة في الآداب (قسم اللغة العربية) والإجازة في التربية والتعليم من

---

(١) مجلة المجمع، مج ٥١ (ج٤/ ص٨٠١ – ٨٢٦).

(٢) مجلة المجمع، مج ٥١ (ج٤/ ص٧٥١) وانظر جملة من المصادر التي ترجمت للأستاذ محمد بهجة البيطار في كتاب إتمام الأعلام (ط٢) للدكتور نزار أباظة، ومحمد رياض العالم: (٣٤٣ – ٣٤٤).

دار المعلمين العليا عام ١٩٥٢، وعُيّن مدرسًا للعربية في ثانويات دمشق.

لقد أحب الأستاذ عاصم العربية الحبّ الجمّ، وأكبّ على علومها، وكدّ في دراستها والاطلاع على كتبها.

وكان لمجالس أبيه التي كانت تُعقد في كل جمعة في داره، وتمتدُّ من بعد صلاة الجمعة إلى وقت العصر، ويغشاها كبار العلماء، وخيرة الأدباء، أثرها الكبير في تفتُّح مواهبه، وصقل معارفه، وكانت رافدًا كبيرًا لما جناه من علوم ومعارف في دراساته ومطالعاته[(١)].

كما نعَم الأستاذ عاصم برعاية والده وعنايته، فقد زوّده بأغلى النصائح، وجلبه المزالق، وأرشده إلى الجادة. ومما يذكره الأستاذ عاصم أنه حين أخبر والده أنه مُقدمٌ على التدريس، سأله الوالد رحمه الله: هل أعددت للأمر عُدّته؟ وأفاض الأستاذ عاصم في استعراض جهوده ودراساته، وما نهض به لتثقيف نفسه استعدادًا للنهوض بهذه المهمة على خير الوجوه وأرضاها، فحمَد له الوالدُ الكريم ما قام به وأعده، ليؤدي رسالته في التعليم الأداء الحسن، ولكنه أضاف: ((لا بد من أمر مهم يجب أن تُعنى به وتلتزمه، وهو أن تحرص على كسب حب طلابك، وتحسنَ التأتّي لهم، فتقدم لهم المادة العلمية سهلة ميسرة، وتعاملهم معاملة الأب ترفق بهم، وتتبين مطالبهم، فتحملهم بذلك على التعلق بك واحترامك، فإذا أحبوك أحبوا مادتك، وأقبلوا عليها))[(٢)].

---

(١) مجلة التراث العربي – العدد (٩٢)، كانون الأول ٢٠٠٣، ص (٣٨).

(٢) الأستاذ عاصم البيطار... الدكتور حسان الطيان، الرأي العام، الخميس ٢٠٠٥/٧/٧، في رحيل أستاذنا الكبير عاصم ... لأيمن بن أحمد ذو الغنى، ص(٣)، كلمة الأستاذ عاصم في حفل استقباله، مجلة المجمع، مج ٧٩ (ج٢/ص٤٤٧).

وعمل الأستاذ عاصم بنصيحة والده، وأقبل على التعليم إقبال وامق، ووقَفَ عليه كل همّه، وجاهد وجهدَ لتكون دروسه محبّبةً إلى طلابه، سهلة العبارة، بعيدة عن التعقيد. وقد وفّق في عمله كل التوفيق. يطالعك ذلك في حرص الطّلاب على حضور دروسه أشد الحرص، يتلقونها بشغف وتفهُّم، ويجدون في أستاذهم المعين المسعف لتذليل ما يتراءى لهم من صعوبة، وقد أحبه طلّابه وتعلقوا به، وظلوا يرون فيه الأستاذ المفضّل الذي علّمهم فأحسن تعليمهم، وبذل جهده ليقدّم لهم المادة العلمية في أجمل صورها، قريبة المتناول، يتفهمونها ويفيدون منها، وقد عبروا غيرَ ما مرّة عن رضاهم وفرحتهم بأستاذهم، ثم تراءت في جملة من الكلمات التي كتبها بعضهم في رثاء أستاذهم عبارات تحمل ما يكنُّون لأستاذهم من المحبة والتقدير[1].

❁ ❁ ❁

درّس الأستاذ عاصم في ثانويات دمشق ما بين سنتي (١٩٥٢ – ١٩٦٣م)، ما عدا سنة واحدة (١٩٥٩ – ١٩٦٠م) قضاها في قطر مفتشًا للغة العربية.

ثم أُعير إلى المملكة العربية السعودية ما بين عامي (١٩٦٣ – ١٩٦٨م) مدرساً للنحو والصرف في كلية اللغة العربية (الكليات والمعاهد).

وعاد إلى دمشق فكان أستاذًا في معهد إعداد المدرسين للحلْقة المتوسطة مدة عامين، ثم انُتدب من وزارة التربية إلى جامعة دمشق للتدريس في قسم اللغة العربية –

(١) عاصم البيطار... البسمة التي انطفأت لشوقي المعري، صحيفة البعث، الاثنين ٢٠٠٥/٦/٢٧، رحيل عاصم البيطار لخليل محمود الصمادي، مجلة الفيصل، عدد آب ٢٠٠٥، الأستاذ عاصم... د. حسان الطيان.. الرأي العام، الخميس ٢٠٠٥/٧/٧.

كلية الآداب، فدرّس مادة النحو والصرف سبعة عشر عامًا (١٩٧٠ – ١٩٨٧م) وكان يحاضر على طلبة السنة الأولى، فأحبه الطلاب، وتعلقوا به. وقد أُتيح له آنذاك أن يؤلف كتابًا في العربية لا يزال مقرّرًا. ثم أُحيل الأستاذ عاصم على التقاعد لبلوغه سن الستين.

وبعد التقاعد عمل في ((معجم العماد الموسوعي)) مشرفًا على الجانب اللغوي منه، كما عمل في الوقت نفسه في معهد إعداد المدرسين.

وسافر من بعد إلى الرياض للمرة الثالثة ليدرّس النحو والصرف في جامعة الملك سعود خمس سنوات (١٩٨٩ – ١٩٩٤م)، وكان يعمل في الوقت نفسه في تقويم كثير من المقالات والبحوث التي تقدم إلى مجلة (الفيصل)، ثم انصرف إلى العمل في المجلة فحسْب ثماني سنوات (١٩٩٤ – ٢٠٠٢م)، ليعود بعدها إلى دمشق في عام ٢٠٠٢م.

وكان في نيته أن يُصدر كتابًا يروي سيرة والده الشيخ بهجة البيطار. فهو يقول في ختام سيرته الذاتية: ((اجتمع لديّ كثير من الوثائق والرسائل والأحاديث الإذاعية والمقالات لسيدي الوالد، وأسأل الله تعالى أن يُنعم عليّ بالوقت الكافي لأُصدر عنه كتابًا يروي سيرته في تعلّمه وتعليمه، وفي حياته العامة في أسرته ومجتمعه، فسيرته، رحمه الله، جديرة أن تكون قدوة لمن أراد الطمأنينة والسلام في الدنيا، والسعادة في الآخرة)).

ويُؤسفنا أنه لم يستطع تحقيق رغبته، رحمه الله.

- وقد انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ عاصم البيطار عضوًا في المجمع في ٢٠٠٣/٦/٢٥م، وصدر المرسوم الجمهوري رقم (٢٨٥) في ٢٠٠٣/٨/١٢ بتعيينه.

واحتفل المجمع باستقباله في جلسة علنية عقدها في ١٢/١/ ٢٠٠٤م في قاعة المحاضرات في المجمع حضرها نخبة طيبة من رجال العلم والأدب وأصدقاء المحتفى به[١].

وبدأ نشاطه، كالعهد به دائمًا، فَعُني بمجلة المجمع وتدقيقها وإخراجها، وشارك في لجان المجمع، وواصل العمل، لا يعرف الملل ولا الكلال، حتى أتاه اليقين فلبّى نداء ربه صباح يوم الجمعة في ٢٤ حزيران ٢٠٠٥م. رحمه الله الرحمة الواسعة وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقًا.

لقد كان رحمه الله معلّمًا فذا فريدًا، اكتملت له المعرفة النحوية، والخبرة التربوية، والإخلاص في العمل، فكان التعليم وإتقانه همه ودأبه، وأولى طلابه الرعاية والعناية فأحبوه وأحبوا العربية التي قدمها لهم بعبارات سلسة لا تعقيدَ فيها، فجزاه الله الجزاء الأوفى.

(١) مجلة مجمع اللغة العربية، مج ٧٩ (ج ٢ نيسان ٢٠٠٤م/ ص ٤٣٣ – ٤٥٢).

كلمة الدكتور علي أبو زيد

إنّ سُنّةَ الحياة تقتضي أنْ لا بقاء لأحدٍ من البشر، فهيَ دارُ عبورٍ وعمل، وهي أعمار مقضية إلى أجلٍ مسمى، ينتهي بانتهائها وجود الإنسان، وتفنى بعدها الأجساد، ولا يبقى إلا ما يخّلفه الإنسان من آثارٍ في هذه الدنيا، فيمتدُّ ذكر المرء ويعيش مع الأجيال، بقدر ما يقدّمه للآخرين من علمٍ وعمل.

ومما لا شك فيه أنّ أثرَ أهل العلم لا ينتهي بانتهاءِ أعمارهم، بل يبقى خالدًا مستمرا مع الأجيال، مؤثّرًا في المجتمعات وحضارة الأمم، من خلال ما يتركونه من علمٍ بين طلاّبهم، ومن أبحاثٍ تنير الطريق وتبعث على النهوض والتطوّر، وأعمال خدمت الإنسان والمجتمع. هذه هي سنة الحياة القويمة، راياتٌ تُرفع بأيدٍ مخلصة أمينة، ثم تتعاقب الأجيال على حملها؛ لتستمر المسيرة، ويبقى التواصل بين أبناء الأمة.

وإنّ تاريخ أيّ أمةٍ هو تاريخ رجالها وعلمائها، الذين صنعوا حضارتها ورسّخوا مبادئها وقيمها، وبعثوا في أبنائها روح الفخر والانتماء، وحب العلم والعمل، والتطلُّع إلى حياة كريمة عزيزة، وعلى الأجيال أن تظل وفيّةً لهؤلاء العظماء والعلماء، ممن قامت على جهودهم نهضة الأمة، وعملوا على خدمة المجتمع وازدهاره، ولاسيما أن سُنّة الحياة تُحتّم الموت على الجميع.

واليومَ نلتقي لتأبين واحدٍ من علماء العربية، وأحد أبرز أساتذة جامعة دمشق، الذين أفنوا عمرهم أوفياء لمجتمعهم ووطنهم، مخلصين للعلم ولما ندبوا أنفسهم من

أجله، الأستاذ عاصم البيطار، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

أيها السادة الأفاضل:

لقد كان الأستاذ عاصم أحد أعلام جامعة دمشق، وواحدًا من مفاخر كلياتها، ومن الأوائل الذين أسهموا في تقريب النحو من شُدَاته، وفي تدريس علوم العربية في غير ما كلية، يشهدُ بذلك تاريخه الحافل بالعطاء، في كليات الآداب والشريعة والطب والتربية، ويدينُ له طلابه بالفضل، ويُكنّون له التقدير والاحترام، كما تعترف الجامعة بجهوده المتميزة فيها، على أنه من كوكبة أساتيذها وعلمائها الذين تفخر بهم وتُفاخر، ويقرُّ الناسُ بما قدّمه من خدمات جليلة مُدة حياته الحافلة بالعطاء والإخلاص، وكان في ارتحاله إلى الجامعات العربية خير سفير لجامعته ووطنه؛ ولذلك لم يكن عبور هذا العالم سريعًا؛ لأن ذكراه وآثاره باقية فينا بعده، فقد كان نبراس هداية لطلابه، ودليلًا صادقًا ووفيا لأهل العلم، وقدوة صالحة في البذل والعطاء، ومثالًا للأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة.

عرفته منذ أزيد من ثلاثة عقود أستاذًا جليلًا، فيه سمتُ العلماء، وتواضع أهل العلم، تحلى بالدماثة فزينها، وتجسدت فيه القيم النبيلة والأخلاق الحميدة والمبادئ السامية؛ فحببها إلينا وقربنا منها، أنسَنا إليه معلمًا وأبا وصديقًا؛ فوجدناه فوق ما قدرناه فيه، ولم تحل هيبته دون اقترابه منا؛ قبهرنا تهذيبه وطيب معشره.

أيها السادة:

إذا تساوى الناس في الموت؛ فإنهم لا يتساوون بعده؛ بما يتركونه من علم وآثار تخلدهم بعد موتهم، والمرحوم عاصم البيطار من هؤلاء الذين تحتفظ بهم ذاكرة

التاريخ، وإذا كان الموت قد غيّب عنا جسد فقيدنا، وخلّفَ فينا الحزن والأسى، بقدر ما ترك من الأثر الطّيب والذكر الحسن؛ فإنه باقٍ في ضمائرنا وضمير الوطن، حيٌّ في ذاكرة طلابه وزملائه، بما تركه فينا من علمٍ نافع، وعمل صالح، وآثار علمية لا تُغيّبُها الأيام.

لقد مضى طاهرَ الأثواب لم تبقَ روضةٌ غداةَ ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ

نحمد الله فقيدنا، فقيد جامعة دمشق ومجمع اللغة العربية والوطن، بالرحمة والمغفرة، وأسكنه فسيح جنانه، بما قدم من خيرٍ وعلمٍ وعمل، وألهَمنا وأهله الصبر والسلوان، وعوّض أهلَه وجامعته وطلابه والعربية خيرًا؛ لاحتسابهم وصبرهم على ما أصابهم.

والسلام عليكم

كلمة الدكتور عبد الكريم الأشتر

- ١ -

بعضُ الموت تضيق به الكلمات، كأنّ معانيَه في النفس، تطوي حدود اللغة المرسومة إلى حيث تعجز كلماتها عن خطابه، مهما اتسعت. إنّ طريقَ الحياة ليس أوسع من طريق الموت؛ إذ هما معًا طريق المحجّة الواحدة إلى ملكوت الله القائم إلى غير نهاية، ثم هل تصل اللغة إلى أبعدَ مما تصل إليه الحواس أو يهجس به الضمير؟

لم يكن عاصم، بالنسبة إليّ، مجرد صديق، إنه رفيق الدرب الطويل الذي قطعناه معًا، تخلّفتُ عنه، في أول العمر، مرحلة أو مرحلتين، وأحسبه يسبقني اليوم إلى نهايته، مرحلة أو مرحلتين مقدّرتين في غيب الله، واجهنا عثرات العمر معًا، وتخطيناها معًا، وبلونا حقائقها معًا، فتسابقنا إلى الفوز بها معًا، وإلى الخيبة فيها معًا. ولكنه كان، كما قلت، يتقدمني مرحلة أو مرحلتين، فكان له بهما عليّ حقّ التوجيه والنصيحة، حتى إني قلت مرّةً أخاطبه وهي، بحمد الله، المرة الوحيدة التي واتاني فيها نظم ساذَج انتزعتُ بعض مفرداته من كتاب (الكامل)، وكنّا أخذنا ندرس بعض فصوله ذلك العام (وكان عاصم ما يفتأ يردّدها عليّ وهو يضحك، في مناسبات كثيرة):

يا عاصمي! يا أخا نفسي! ويا ثقتي! يا دمعتي في سواد الليل يعتكر!
شرْبتُ ودّك لا رنْقًا ولا كدرًا حاشا لودّك أن ينتابه الكَدَرُ
كم قُدتَ خَطْوي إلى سَلْمٍ ومغفرةٍ علّمتني الصبر في أعقابه الظفر

كنتُ آنذاك في حوالي التاسعة عشرة، وكنّا ننام معًا، أيام الفحوص، في بيته بيت والده عالم الشام الشيخ محمد بهجة البيطار، في الميدان، في فراشين متجاورين، نصحو فيهما، عند الفجر، على أذان لطيف تحمله إلينا مئذنة الجامع الصغير المجاور لباب البيت، وكان الشيخ إذا ذكر بيته عدّ جوار هذا الجامع أكبر مزاياه!

في هذا البيت الذي امتلأت خزانات واحدة من غرفه بالكتب، وتوسطتْ أرضَ الدار فيه بركةٌ صغيرة؛ كنت حين أنام في الغرفة القريبة منها أغفو على خرير مائها الرتيب، فيخيّل إليّ - أنا القادم من أرض الشمال العطشى، والغفوة توشك أن تستولي عليّ - أن همسًا غريبًا يصل إليّ من عالم غامض يقع وراء الحس، ثم نصحو بعده، في الصباح، على صوت الشيخ يدعونا إلى طعام الإفطار.

كانت طلعة الشيخ بهيّة تفيض بالنور، سمْحًا هادئًا جميل السمْت، قرّب سَمته يومًا للدكتور جميل صليبا، سَمْتَ السيد المسيح، على نحو ما قرّبه سمت الحسن البصري، للراهبَين اللذين دخلا البصرة، كما يقول المبرّد[1]، من ناحية الشام. وكان عاصم، في مرحه المعهود، يهوى أن يداعب الشيخ في غير خشْيةٍ من غضبه، إذ كان لا يغضب لأمثالها، فكان يقول في غاية الجدّ، لمن يسمعه يمتدح أباه الشيخ: «طالع لابنه»! ويسمعها الشيخ فيضحك لها، ويُغْرِبُ في الضحك!

ولكن عاصمًا كان لا يجامل في الحق أبدًا، وما أكثر ما كان يخالف من يكون معهم فيما يذهبون إليه، إن كان له فيه رأي آخر، على أنه لم يكن يصل، في خلافه، إلى حدّ الإثارة، ثم إنه كان يبلغ فيه من وضوح القصد أن يجعل مخالفه على حافة الإدراك

(١) الكامل (١/ ٨٨).

لمرامي الخلاف، فيجعله ذلك أقربَ إلى الرضا بما ينتهيان إليه، أو إلى السكوت عنه. وكان من دأْبه أن ينسى حقّ نفسه أمام حقّ الآخر، وأن يترك سبيل العودة إلى استئناف الودّ بينهما مفتوحة دائمًا.

- ٢ -

كان معلّمًا بحكم التكوين، فكان بحكمه وحكم النشأة يتخذ إذا تحدث هيئة المعلّم، ويميل في أسلوبه إليه، وقد خلّف، في كل مكان حلّ فيه، طلاّبًا كثيرين يدينون له بفضل تعليمهم، وإعانتهم على تكوين فكرهم اللغوي، كما كان يقول. وقد ظلّ كتابه الكبير في النحو والصرف عمدة دراسة هذين العلمين في الجامعة سنين طويلة، وما يزال إلى اليوم يُعاد طبعه فيها، ونشْره في الطلبة، ثم إنه جرّد من حواشيه وتعليقاته كتابه المفيد الآخر (من شواهد النحو والصرف). وكان لا يتوانى عن الاشتراك في تأليف الكتاب المدرسي، في مراحل التعليم المختلفة؛ إدراكًا منه لمكانه من تكوين الأجيال. وقد شرُكته في تأليف كتابين مدرسيين سمعته، من بعد، يعتزُّ بهما؛ لما لمس من أثرهما في طلابه. ورأيته في الأيام، الأخيرة، يُعيد النظر في إخراج بعض الكتب التي كان جدّه الشيخ عبد الرزاق البيطار صَنَعها، أو بعض ما كان أستاذنا والده الشيخ تولّى تحقيقه من قبل، فيزيد عاصم في التحقيق والشرح والتفسير، وتصدر باسميهما معًا؛ مثل كتاب (أسرار العربية) لابن الأنباري (ت٥٧٧هـ).

وكنت أراه يدخل عليّ أحيانًا، مكتبي في الجامعة، ساهمًا، على عادته حين يشكو مما يقع من حوله، أو يعجب له ، أو يحار في فهمه، كان - يكاد لا يصدق ما انتهت إليه حال لغتنا في الجامعة، وقد وقعتُ، وأنا في إدارة القسم، على تقرير كان رفعه إلى عمادة

كلية الآداب، عن وضع اللغة في السنة الجامعية الأولى، قال فيه: «إن الذين يستأهلون النجاح في مقرّره لا يزيد عددهم على عشرين طالبًا، من أصل ستمئة وواحد وثلاثين طالبًا! ولو زيدت درجات عدد من الراسبين، ممن تتراوح درجتهم بين خمس وأربعين وسبع وأربعين، لما زاد عدد الناجحين منهم على ثلاثة وأربعين طالبًا، ولبلغت نسبة النجاح حينذاك ست درجات وثمانيَة أعشار الدرجة، في المئة! ولو اجتمعت أسباب المساعدات كلُّها، وأُضيفت إليها درجاتُ حلقات البحوث خلال العام؛ لما زادت نسبة النجاح، بعد هذا كله، على أربعَ عشْرة في المئة! ثم إن الأوراق التي نالت درجة الصفر وما فوقها قليلًا تزيد على مئتين وثماني عشرة ورقة؛ أي: ما يزيد على ثلث مجموع الأوراق»!

وفي آخر التقرير يدعو بحُرقة إلى الاهتمام برفع مستوى الطلبة في تعلم لغتهم التي يختّصون بدرسها ودرس أدبها، بدل الاهتمام برفع نسبة النجاح، والإلحاح فيه، ويختم تقريره بهذا الرثاء الحزين: «لو كان لهذه اللغة المهيضة الجناحُ أن تفعل شيئًا لبكت نفسها وأبكتنَا معها»!

- ٣ -

أيها الصديق العزيز!

رحلتَ ،كما عهدتك دائمًا، خفيفًا لطيفًا سريع الخطْو، كأنك تعجّلت الرحيل بعد أن ودّعت أخويك، وأديت رسالتك، وأصبحت جدا لقافلة من الأحفاد، وغدوت عضوًا في مجمع اللغة التي أحببتَها حتى وهبتَها حياتك.

بارك الله لك فيما صحبت معك من صالح القول والعمل، وقد عرفتك في الدنيا

كريمًا بفعله، ضنينًا بخبره عن كل أحد، وبارك لك فيما أبقيت من صالح القول والعمل.

هل تذكرني في مُقامك اليومَ أيها الصديق؟ وهل تسمعني؟ هذا مقام الشهادة، وأشهد أنك كنت في سمائنا كالنجم الطالع، تنشر ضياء المحبة فينا كبارًا وصغارًا، وأشهد أنك كنت جميل القول، جميل العمل، لا تتأخر عن واجب تُدعى إليه، **وأنت** أحوج ما تكون إلى الراحة من تعب عمرك الحافل بالعمل، في كل مكان حللت فيه. رحمك الله حيا، ورحمك ميّتًا. **ما كان أكرمَك! وما كان أعذَبك! وما كان أطيَبك! وما كان أعمقَ حزَنك وأصدقَ** أساك وأنت تشهد من حال أمتك مثل ما فارقتَها عليه!

فلو كان لك أن تخاطب ربك، **وأنت اليوم أقربُ منّا إليه؛ فاشكُ إليه، وأنت بعيد عنّا، ما كنتُ أسمعك تشكو إليه، وأنت بيننا. قل له:**

«**يا ربّ!** أمتك التي قلت يومًا في كتابـ**ك العظيم**: إنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [**آل عمران** الآية ١١٠]، **تلقى اليوم** - بمئات ملايينها، وثرواتها التي لا تُحصى، **وتراثها** الثقافي العظيم - من الهوان، ما أنت به أعلم: تُجلى عن أرضها، وتُستباح مقدساتها، وتُنتهك حرماتها، وتُنتهب خيراتها، ويقتّل أهلها.

ولغتك التي أنزلت بها كتابك العظيم وتعهدت بحفظه فيهم، تتلجلج بنطقها **ألسنتهم، وتعوّج وتتعثر، حتى كيفتى بنفيها، أو «يُبشر» بانقراضها، تغزوها لغات** الثقافات الأخرى، وتتجاوزها، ويُعجز أهلَها أن يجاروها أو يلحقوا بها.

وهم اليوم، كما تراهم! **لا يدرون ما يصنعون، غرباء عن أنفسهم، غرباء عن** معارف عصرهم، يحارون: كيف يخرجون من زيف أنفسهم، ويتمسكون بحقائقها؟

كيف يستقوون على مواطن ضعفها ويقفون على مكامن قوتها، ويخرجون، في النهاية، من النفق المظلم الذي وجدوا أنفسهم فيه»؟

وسلامٌ عليك يا عاصم! أنت الذي عَمَرْت العمر بمحبتك فمنحته معناها، وغمرَته بأمنك وأمانك، وسلام على من خلّفت من أهلك وولدك، أحسن الله جزاءك في كل ما قلت وما فعلت وما نويت، وأحسن تعزيتهم وتعزيتنا فيك، والحمد لله في كلّ حال.

كلمة الدكتور أيمن الشوّا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [سورة فصلت الآية ٣٠-٣١] صدق الله العظيم

الحمدُ لله الذي هيّأ للغة العربية عبادًا عاملين، رزقهم الإخلاصَ، فقاموا عليها رُعاةً وحَفَظةً، يُفنون لها الأعمار، ويملؤون بها الأسفار، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على خير مبعوث بالهدى والبيان، سيدنا محمد ﷺ سيد ولد عدنان.

وبعدُ: أستاذنا الحبيب وفقيدَنا الغالي:

لقد - والله - أحزننا موتُك، وشقّ علينا فراقُك، ولا شكّ أن فقدَ الأحباب فاجعةٌ أليمة، وكونُ الفقيد من العلماء أشد ألَمًا وأبلغ أثرًا، إنَّ فقد العلماء كارثة مريرة، وكونُ الفقيد من المربّين أصحاب رسالة سامية أشدُّ مرارةً وأفدح خسارةً، وفَقْدُ العلماء ثُلمةٌ لا تعوض، ولَفَقْدُ قبيلة أهون على الله من فَقْد عالم.

أيها السادة:

لا يخفى أثر المعلمين في حياة الأمة، فهم خلفاء الرُّسل - عليهم الصلاة والسلام- في تعليمهم وأخلاقهم:

كاد المعلم أن يكون رسولا

إذ هم القدوة الصالحة التي يَنشُدُها الطلاب في مدارسهم وجامعاتهم، والمُثُل العليا تُستملى من صفاتهم وأعمالهم، لا من الكتب التي يُدرّسونها فحسب، إذ بهم يُقتدى، وبهديهم يُهتدى.

ماذا نفعل إذ نتحدثُ عن أساتذتنا وأحبابنا وأصحاب الفضل علينا، ونحن في هذا الموقف؟ لا بد أن نتحدث عن سجاياهم وسيرتهم التعليمية وأثرهم في بناء جيلٍ لا يقدم لوطنه إلا الخيَر والنفعَ، ولا ينشأ إلا على الغَيرة على حب العربية وبذل أقصى الجهود لتوصيلها بمحبة وإتقان إلى العالَمين.

أما سجاياه النفسية العالية التي تّوجت حياته وكانت تسير به صُعُدًا نحو معارج الكمال يومًا بعد يوم فما أظنُّ إلا أنها معروفةٌ للجميع، ولكنْ إذا نسي الناس شيئًا فلا ينسون في الأستاذ عاصم - يرحمه الله - أنه سَمْحُ النفس، نقيُّ القلب، يألفُ ويُؤلَفُ، لطيف المعشر، حاضر الطُّرفة والبديهة، مهيبُ الطلعة، مُحبَّبٌ إلى النفس، محكم الإجابة والتعليق، ومجاذبة أطراف الحديث، يُقبِل على جلسائه ويؤنسهم جميعًا على اختلاف درجاتهم وثقافاتهم:

بيأنـــك في قلـــوبهُم وفـــاءٌ وحبُّـــك لا يـــزول ولا يُحـــوَل

الأستاذ عاصم كان من المُخْلصين الذين يعملون في صمت، ويدأبون في إيمان،

ويتابعون جهودهم بعيدًا عن مواقع الشهرة والضجيج، ما تسلّم رئاسة قسم، ولا عمادة كلية، ولا سعى إليها.

وأما عن مسيرته التعليمية فقد أعطى لطلابه المَثل الأعلى، لقد ارتبط بحب اللغة العربية ارتباطًا ملك عليه شغاف قلبه، فانعكس ذلك في تدريسه المتميز وإخلاصه وجهوده في خدمة اللغة والدأب المتواصل في الدفاع عنها.

بعد مسيرة تعليمية طويلة في ثانويات دمشق وبعض المعاهد العلمية في المملكة العربية السعودية كُلف بتدريس اللغة العربية (النحو والصرف) في جامعة دمشق قسم اللغة العربية، فأعدّ لهذا الأمر عُدّته، فالتعليم الجامعي يحتاج إلى مزيد من الخبرة والتحضير من شتى المصادر والمراجع، وقد حشد أمامه كتب النحو المتنوعة؛ مثل: «شرح الكافية»، وشروح «الألفية» وغيرها، وقد أطلع والده العلامة بهجة البيطار عليها وهو يحضر لدروسه، فقال الأب ناصحًا، موجهًا:

يا بُني، هذه المصادر والمراجع لا تفعل فعلها في نفوس الطلاب ما لم تُهيئ لهم ما يفوق ذلك !.

قال: - وما هو؟

قال: - عليك أن تجعل بينك وبين الطلاب جميعًا جسرًا من الأُلفة والمحبة، إنْ أحبّ الطالبُ معلّمه أقبل على درسه بحرص وشغف واهتمام، وزاد نفعُه واستكمل علْمَه.

فكم جسر من المحبة بنيتَ بينك وبين الناس جميعًا بلْه طلابك وأصدقاءك!!

رأى أن تدريس العربيّة ليس صنعةً تُدرّ المال كغيرها من الصناعات، إنما هو

واجب مقدس، وأمانة لهذا الدين، ورسالة من هدي القرآن.

تمثل هذا الواجب بأمورٍ عديدة؛ منها المواظبة على التعليم بهمة عالية لا تعرف الملل أو الفتور، لقد عهدناه ضابطًا لوقته، ما تغيب عن محاضرة، ولا تأخر عن درس.

كان مهيبًا يحفُّ به الكثير من الجلال والوقار، ويفرض على طلابه جميعًا الاحترام والتقدير، ومع هذا الاحترام استوعب الطلاب جميعًا، المتفوّق منهم والمتوسط والضعيف، بل كان يأخذ بيد الضعيف ويحمّسه لبذل الهمة العالية في سبيل محبة النحو والصرف، ويُذلِّل له طرق تعلُّمها وإتقانها، ويزيل عنه وعن أفكار الطلبة جميعًا فكرةَ أن النحو صعْبٌ، وأن قواعده وَعْرة معقدة.

الآراء التي كانت تنادي بتيسير النحو والتي كانت سائدة في عدد من الأقطار العربية ما وجدنا لها أثرًا في جامعة دمشق في حياة الأستاذ عاصم، ولا في منهاج من قبله كالأستاذ الأفغاني والأستاذ أحمد راتب النفاخ - رحمهما الله تعالى - ولا في منهج صديقه الوفيّ الدكتور مازن المبارك – حفظه الله- لأنهم أيقنوا حق اليقين أن تيسير النحو العربي لا يكون بتغيير قواعده، إنما يتم من خلال طرائق العَرْض الميسرة ومنهجية تقديمها على الشكل الأمثل، يعطي ما هو ضروري من النحو، وينأى عن كل ما فيه تعقيد أو شذوذٌ، وكانوا يبتعدون عن كل ما يُمتّ إلى الألغاز بصلة؛ لذلك ما وجدنا في مسيرة النحو العربي التي عاشها فقيدنا ولا وجد المدرسون المختصون في النحو العربي أيّ شكوى من صعوبة تدريس النحو، ويكفي دليلًا على ذلك أن الكتاب الجامعي الذي ألّفه - رحمه الله - قبل ثلاثين سنة ما يزال يُدرّس في ربوع جامعة دمشق - قسم اللغة العربية، وقد اقترحتُه ليدرّس في كلية الشريعة أيضًا.

ما وُجد لهذا الكتاب منافس، ولم يجرؤ مدرّس على تأليف كتاب بديلٍ عنه، ولسان حال المدرسين عندنا يقول: من أراد أن يؤلف كتابًا في النحو بعد كتاب الأستاذ عاصم فليستحي...! وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على تمّلك الأستاذ عاصم لناصية التأليف النحوي بعد رسوخه في هذا العلم، ويدّل على وفاء المدرسين - وهم طلابه فيما بعد - لمدرسهم وصاحب الفضل عليهم.

بادر إلى التدريس بكلية الطبّ في جامعة دمشق، ولا شأن للفصحى فيها إلا قليلًا، وغالبية الطلاب لا تقيم للعربية وزنًا، ولا تكتب جملةً مسبوكةً، ولا تكاد تلفظ كلمةً صحيحةً، فعكف على توجيه الطلاب نحو أهمية العربية وقواعدها، وجهد في صقل الطلاب صقلًا متقنًا، قراءةً وكتابةً حتى غدا أكثرهم مدركين لأهمية النحو، ومتقنين لهذا العلم، ومتمثلينه خير تمثيل.

لقد نمت مَلَكة اللغة العربية في طلابه - رحمه الله - من اللغة المشرقة التي كان يتفوّه بها؛ تعليمها وبيانها والحديث عن خصائصها وأسرارها، ووجد الطلاب في تلك المحاضرات طَلْبَتهم وغايتهم المنشودة المتمثلة في أمرين بارزين:

أولهما: النطق السليم المتقن.

الثاني: الكتابة الصحيحة المعبرة.

فالنحو وسيلةُ عَصْمَة ألسنتنا وأقلامنا من مجانبة انتحاء سمت كلام العرب، فنفهَمُ ونُفهمُ الآخرين.

تطوع الأستاذ عاصم خيرًا فخصص للطلاب محاضرةً مسائية للتطبيق الإعرابي الشامل والمتنوّع، أطلق عليها اسم «ما يطلبه الجُمهور» أو «أنت تسأل ونحن نجيب»،

فيسجل الطلاب أسئلتهم المتنوعة في اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب على ورقة، فيجمعها المدرس ويقوم بالإجابة عنها بتفصيلٍ ودقة بيانٍ ناصع؛ ولعل لكل سؤالٍ منها إنما هو بحث مستقلّ فيه فوائد لا تُعدُّ ولا تُحصى.

الأستاذ عاصم فكرٌ حرٌّ متميّز، ليس فيه تعقيد أو تقليد، وإن شئت أن تدري قوة المنطق وحرية الفكر الذي يتميّز به فشواهد ذلك كبيرة بارزة، سأله أحد الطلاب عن قصة المازني حول بيت العرجي:

أظلومُ إنّ مصابكُم رجلًا أهدى السلام تحيّةً ظُلْمُ

وأنّ بعضَ أهل الذمّة بذل له مئة دينار على أن يُقرئه كتاب سيبويه، فامتنع من ذلك مع ما كان به من شدة احتياج، فلامه تلميذه المبرد، فأجابه بأن الكتاب مشتمل على ثلاثمئة وكذا وكذا آية من كتاب الله تعالى، فلا ينبغي تمكينُ ذمّي من قراءتها... فلم تُرْقِ للأستاذ عاصم هذه الحكاية، ولا استحسن تصرف المازني في ذلك، وقال: أهكذا كانت دعوة النبي ﷺ حين وجّهه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة الآية ٦]؛ وبقوله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [سورة الحجر الآية ٩٤] وهل رسول الله ﷺ إلا قدوةٌ حسنة لنا؟!

أيها الإخوة الكرام:

لا شك أن في هذا المجلس العامر من هو أعلمُ وأكرم مني، وأفصح بيانًا، وأقدر بلاغًا، وأقرب معرفة ولصوقًا بحياة الأستاذ عاصم - رحمه الله - وسيرته العطرة، وما

تقدمتُ في كلمتي هذه إلا امتثالًا لأمر رئيس مجمع اللغة العربية وأعضائه المخلصين.

يا فقيدنا الغالي:

لك على الأمة حق كبير، فهل تفي ببعضه ذكرى ساعة في رثائك؟ مجمعُ اللغة العربية وجامعةُ دمشق واتحاد كُتّاب العرب فيهم الوفاء للعاملين المخلصين، وقد يخلدون اسم الأستاذ عاصم البيطار بأن يطلقوه على بعض قاعات الدرس، أو مدرجات الجامعة، على نحو ما عوّدنا فضلهم وكرمهم، أما الذي يحفظ لفقيدنا الخلود العميق فذلك ما قدّم من جُهد وعمل، وإن نصيب أستاذنا من ذلك لكثير:

هـــذه آثارُنـــا تَـــدُلُّ علينـــا فـــانظروا بعـــدنا إلى الآثـــار

رحمك الله تعالى وألهمنا نحن طلابه وأصدقاءه وإخوانه وأهلَه الصبر والسُّلوان، وعوض العربية والوطن خيرًا.

كـل يجـود بـما لديـه فـما النـدى وقفًـا عـلى مـن يُجزلـون عطـاء
لا تـنهض الأوطـان مـن كبواتهـا إلا عـلى أيـد تفـيضُ سـخَاء

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة السيدة ندى البيطار

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

لله ما أعطى وله ما أخذ، والحمدُ لله، **ولا حولَ ولا قوة إلا بالله.**

أيها السادة الكرام:

رحل والدي عاصم البيطار ابنُ علاّمة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار رحمهما الله **بعد حياة ازدحم فيها البذل والعطاء**، رحل بالنسبة للعالَم، عالِمٌ، أديبٌ، **أستاذٌ، مربٍّ، أما بالنسبة لنا فقد رحل الأب، رحل المثال، الصديق، الأخ، الأنيسُ**، المواسي، القدوةُ **الحسنة، كلُّ ذلك وأكثر منه بكثير...**

ظُهَر يوم جمعة أُسلمت روحه لبارئها في هدوء وسكينة، **وحتى آخر لحظة كانت** نظرته الواهنة تفيض حبا **وحنانًا، وتوصينا بعضَنا** ببعض خيرًا...

لن أتكلم عن حياة **والدي العامة ومآثره**، فأنتم تعرفونها حق المعرفة، وجزى الله خيرًا كل من تكلم وأثنى..، **ولكني سأدخل معكم قليلًا** إلى بيتنا الذي شاطرنا في **سُكناه؛ حب، وموّدة وتفاهم واحترام** زرعها والدي رحمه الله ووالدتي أطال الله في **عمرها، وتعهدها دومًا بالرعاية والحنان...**

كانت رائحة القهوة في الصباح الباكر تنبهنا لأن نهار علمٍ وعملٍ قد بدأ، فيذهب

كل منا لوجهته، ثم نعود لنتحلق حول مائدة الغداء، وتطول جلستنا ونحن نتناقش في أمورنا كلها دون حرج وبكل صراحة ووضوح، وكان يبين الخطأ من الصواب، ويدعم ذلك بالطُّرف والأقاصيص والأشعار التي يُثْحِفُنا بها بأسلوبه البديع الجذاب، فتصبح الجلسة أدبية ممتعة إضافة لكونها اجتماعًا أُسريا.

أخذ والدي بأيدينا منذ خطواتنا الأولى، وبقي مرافقًا مشجعًا في كل مراحل حياتنا، تاركًا لنا حرية الاختيار، وداعمًا في القرار...

علّمنا حمل المسؤولية منذ الصغر، فاستطعنا اجتياز الكثير من مصاعب الحياة بثبات، مراقبًا من بعيد، ومؤنسًا من قريب، سلّم كلا منّا الطريق الذي ارتضاه لنفسه على دروب العلم والمعرفة، فلقد خلّف طبيبًا وخمس بنات كلهنّ من حملة الشهادات الجامعية...، كان اسمه واسم جدي رحمهما الله يمهدان لنا الطريق إلى قلوب الكثيرين بما زرعاه من علمٍ نافع وسُمْعة حسنة...، الجد، واحترام الوقت، والالتزام بالموعد، وحب الناس. والنكتة الحلوة، والعطاء من أبرز صفاته...

نعرف أن الموت حق ولابد من فراق، ومع ذلك أصابتني الدهشة عندما سألتني ابنتي عن قائل بعض أبيات الشعر فأجبتها: لا أدري سأسأل جدك...، كنت أشعر دومًا أن أي سؤال سيعرض لي سأجدُ إجابته عنده...، كان يقرأ مشاكلنا في عيوننا، فيمسك بأيدينا ويضمنا إلى صدره الحاني ويقول: بسيطة، لا يوجد شيء بلا حلّ، بالصبر والعمل والأمل ستنحل العقد، فأين هو الآن ليصبرنا على ما نحن فيه من حزن ووحشة؟

أراه في كل ركن من البيت، فهو لم يكن لينزوي وراء مكتبه منكبا على كتبه، بل

كان معظمُ عمله في غرفة الطعام التي تتوسط منزلنا حتى يكون مع الجميع في كل وقت...، (الدين المعاملة) هذا دستوره في حياته كلها، الإسلام عنده ليس صلاةً وصيامًا وفرائض وحسب، بل كان خُلُقه الذي يعامل الناس به، فهو طيب السريرة، حلو المعشر، صادق الحديث، وفيٌّ إذا وعد، مجيبٌ إذا سُئل، لا يعرف الحقد، بارٌّ بوالديه كل البر، واصلٌ لرحمه، معتدلٌ في أموره كلها...

ألفناه قويا، متماسكًا، ذا همة لا تعرف الكلل، وعزيمة لا يشوبها تراخٍ أو يأس، ينسى الوقت بين كتبه الكثيرة، وتنتقل يده بين الصفحات بهدوء الواثق العالم بمبتغاه...

وفجأة ابتدأت رحلته مع المرض الذي سرى في جسمه متسارعًا، لكنه لم يتمكن من قوة إرادته وعلمه وسرعة بديهته ودقة ملاحظته وطُرَفه التي تُضفي الحبور والسلام على كل من حوله، ثم ازداد مرضه، لكنه ظل صابرًا حامدًا محتسبًا، يعتذر إلينا دومًا عن تركنا بيوتنا لعيادته، ويلهج لسانه وقلبه بالدعاء لنا ولأزواجنا وأولادنا بكل خير الدنيا والآخرة...

أحمدُ الله وأشكر فضله أن مَنّ علينا بأبوين فاضلين أسبغا علينا الحب والحنان، وبذلا لتربيتنا تربية صالحة ما نحن قاصرون عن رد جزءٍ يسير منه!

أيُّها السادة الأفاضل: رئيس مجمع اللغة العربية وأعضاؤه، أساتذة جامعة دمشق، أصدقاء الفقيد؛ نتقدم بصادق شكرنا وعظيم امتناننا لمشاركتكم إيانا المصاب، وأودّ أن أذكر بعضًا من أبيات قصيدة طويلة رثى فيها العلامةُ العراق الكبير محمد بهجة الأثري جدّي - رحمه الله - لأنني أحسست أنها لسان حالنا مع والدي:

في كـــل صـــالحة لـــهُ خَبَـــرٌ ولكـــل تحمـــدة لـــهُ صُـــوَرُ

صـــاف كـــماء المـــزن، ظـــاهره كـــضميره، وكـــسّرة الجهـــرُ

يـا حـزنَ نفسي! سـوف يـصحبني حتـى يـواري جـسمي القبـرُ

لهفًـــا إلى وجـــه تهلـــلّ في أسرارة الإخـــلاصُ والخيـــرُ

نظراتـــه لطـــفٌ، وبـــسمتُه رُحمـى، وعـذبٌ حديثـه نثـرُ

حفظم الله وأبقاكم ذخرًا لأمتنا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الخـاتـمـــة

هذا أوّلُ كتاب يتحدثُ عن عَلَمٍ من أعلام العربية الذين سلكوا طريق العلم بهمة واقتدار، وأخلصوا فيه. فأضاؤوا للأجيال بسيرتهم السيرة المثلى لأعلام تكوّنَ على أيديهم جيلٌ من أساتذة العربية: إنه **الأستاذ عاصم بهجة البيطار**.

جاء الكتابُ استجابةً لمنهج مجمع اللُّغة العربية بدمشق؛ لتخليد علمائه الذين ظهم بينَ ظَهْرَانَيْه، وهُمُ ألمعُ الرّجال ثقافة، وأكثرُهم حُبا للعربيّة، وإخلاصًا لها، ((وإنّ أحقّ الناس بالوفاء لهم مَنْ بنوا لأبنائهم ودِّريتهم ومَنْ قدموا لأمّتهم ووطنهم، وأولى الناس بالحب من آثروا غيرهم بالعطاء)).

واقتضت طبيعة الكتاب أن يكون في ثلاثة فصول:

جمع الفصلُ الأوّل أهم أخبار الأستاذ عاصم البيطار، وتَقَصّدْتُ أن تكون بقلمه، وأقلام معاصريه وأصدقائه، يمتحون من سيرته ويغدقون، وهي أدعى للثّقة والاطمئنان. قدّمْتُ الملامحَ البارزة في حياته، وبطريقة مُجْمَلَة قَدْرَ الإمكان؛ فصورة الأستاذ عاصم أعلى من ذلك بالفضل والعرفان، ولا يمكنُ اختزالها في ترجمة محدودة.

استعرض الفصلُ الثاني أعمال الأستاذ عاصم البيطار العلمية في مجالات عديدة: مجال التأليف، ومجال التحقيق، والأبحاث والمقالات، والتقديم لبعض الكتب.

أبرز الفصلُ الثّالث صورة الأستاذ عاصم البيطار في عقول المعاصرين وقلوبهم،

وبيان الجوانب المشرقة السّامية من شخصيّته الفكريّة والخُلقية والتربوية والثقافية.

هذا وإنّ من أغراض هذا الكتاب الرغبَةَ الصّادقَةَ في أَنْ يتمثّلَ أبناءُ هذا الجيل من طُلّاب العربيّة ومُدرّسيها تلكمُ القدوةَ في حياة الأستاذ عاصم البيطار، وسيرته بين التدريس والتأليف، والخلال التي نشّأهم عليها؛ من الاستقامة والجدّيّة والتّفاني في العمل والحرص على مصلحة هذا الوطن الغالي.

ولا يخفى على أهل الوفاء والغيرة أنّ إصدار الكتب التي تُعرِّفُ بحياة العلماء أعضاء مجمع اللغة العربيّة وآثارهم الرصينة أكثرُ من استحقاق، إنه دَيْنٌ في رقاب جيلي كاملي من تلامذة هؤلاء العلماء البَرَرَة الذين تربّوا على قيم العلم العالية، والجدّيّة والمثابرة، في حياتهم وأعمالهم، فلقد علّموا الدّين والخُلق، كما علّموا العلم، وأفادونا بثمرات تجربتهم في الحياة، وكانوا لنا آباءً قبل أن يكونوا مُعَلّمين.

ولا يسعني في الختام إلّا أن أقدّم الشكر والامتنان والعرفان بالجميل إلى أعضاء مجمع اللغة العربية العامر، فقد تمّ هذا العمل بفضل الله تعالى أولاً، ثمّ بالتوجيه السديد والنقد العلميّ البناء من أساتذتنا الأجلّاء الذين نظروا في هذا الكتاب وخاصّة الدكتور مازن المبارك، والأستاذ مروان البواب، والدكتور ممدوح خسارة:

لقد ذكّرنا الزمان لكم عهوداً مَضَتْ قُدُمًا فلم يضع الذمامُ

۞ ۞ ۞